

كامل كيراني

أشهر القصص

جلقدر



الرحلة الثانية  
في بلاد العمالقة

DVD ARAB



دار المعارف



كامل كيداني

أشهر القصص

# جَلِيقُ كَر

الرحلة الثانية  
في بلاد العماليق

الطبعة العاشرة



دار المعارف

## في بلاد العمالة

### الفصل الأول

#### ١ - دواعي السفر

لَمْ يَمُرَّ عَلَى عَوْدَتِي إِلَى وَطَنِي شَهْرَانِ حَتَّى ضَجِرْتُ بِحَيَاةِ الرَّاحَةِ ،  
وَنَاقَتْ نَفْسِي إِلَى السَّهْرِ ، وَشَعَرْتُ بِشَوْقٍ شَدِيدٍ - لَا قُدْرَةَ لِي عَلَى دَفْعِهِ -  
إِلَى الرَّحِيلِ ، وَرَغْبَةً حَارَّةً فِي السَّيَاحَةِ وَرُؤْيَةِ الْبِلَادِ الْغَرِيبَةِ . وَقَدْ تَمَلَّكَ عَلَيَّ  
حُبُّ الْأَسْفَارِ كُلِّهَا ، فَاعْتَزَمْتُ أَنْ أَظْعَنَ ، وَتَرَكْتُ لِرُؤُوسِي خَمْسَ مِائَةِ  
جَنِيهِ ، وَاكْتَرَيْتُ لِسُكْنَاهَا مَنْزِلًا فِي « كَرْدِيف » ، وَأَخَذْتُ مَا بَقِيَ مِنْ  
ثُرَاتِي ؛ فَشَرَيْتُ بِبَعْضِهِ بَضَائِعَ اتَّجِرُ فِيهَا ، لِأَتَمَرَّ مَالِي وَأَزِيدَ فِي ثُرَاتِي .  
وَكَانَ عَمِّي قَدْ تَرَكَ لِي - بَعْدَ وَفَاتِهِ - أَرْضًا يُقَدَّرُ رِيعُهَا بِثَلَاثِينَ جَنِيهَا .  
وَقَدْ شَجَّعَنِي ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى السَّهْرِ ؛ فَقَدْ أَصَحْتُ لَا أَحْشَى - عَلَى أَسْرَتِي -  
أَلَمَ الْمَقَّةِ وَمَضَاضَةِ الْجُوعِ وَالْإِلْتِعَاءِ إِلَى التَّكْفُفِ وَالشُّوَالِ .

٤  
وكان ولدي يتعلم اللاتينية في المدرسة، وابنتي تَخِيْطُ الملبس وتُطَرِّزُها  
لِتُفَوِّقَ على بَنَاتِهَا الصَّغِيرَاتِ .



ولم أتردد في عزيمتي على السفر - بعد أن  
اطمأنت نفسي على مستقبل أَسْرَتِي - فودَّعْتُ  
زَوْجِي وولدي وابنتي . وقد بَكَوْا حين دَنَّتْ  
ساعةُ الفراقِ ؛ ولكنني تحمَّلتُ ، واعتصمتُ  
بالصَّبْرِ ، وصعدتُ - بشجاعةٍ - إلى السفينةِ  
« أفانتور » ، وهي سفينةٌ تجاريةٌ كبيرةٌ تستطيعُ  
أن تحملَ ثَلَاثِينَ طِنًا ، وكان رُبَّانُهَا من « ليفرپول » ، وهي مُبْحِرَةٌ  
إلى « سورات » .

## ٢ - هُبوبُ العاصفةِ

وكاننا قضى الله على أن تكون حياتي - في هذه الدنيا - حياةً مضطربةً ،  
وأن أقضي عُمرِي دائِمَ الأسفارِ ؛ لا يَقْرَأُ لي قرارٌ ، فاستبدلتُ بِحَيَاةِ الْخَفَضِ  
والدَّعَةِ حَيَاةَ الْفَلَقِ وَالِاقْتِحَامِ .

وقد أَقْلَعَتِ السَّفِينَةُ بي في اليومِ العَشرِينَ من يونيو عام ١٧٠٢ م . وكان  
الهواءُ رُحَاءَ وَالْجَوُّ صَافِيًا ، وما زالت السفينةُ سائرةً حتى وصلتْ إلى « رَأْسِ  
الرَّجَاءِ الصَّالِحِ » ، حيثُ أَلْقَيْنَا مَرَايِنَا لِنَسْتَرِيحَ قَلِيلًا . وكان رُبَّانُنَا قد  
أُصِيبَ بِالْعُمَى ؛ فلم نَسْتَطِعْ أَنْ نَعَادِرَ ذَلِكَ الْمَكَانَ إِلَّا في آخرِ شهرِ مارس .  
وَتَمَّةً أَقْلَعَتِ بنا السفينةُ . وما زالت تَمُخَّرُ بنا عُبَابَ الْبَحْرِ - وَالْجَوُّ صَافٍ  
وَالرَّيْحُ مُعْتَدِلٌ . وَالسَّيَاحَةُ مَوْقِفَةٌ سَعِيدَةٌ - حتى وصلنا إلى جزيرة « مدغشقر »  
حيثُ سیرْنَا إلى شمالِ هذه الجزيرة . وكانت الرِّيحُ تَعْتَدِلُ في هذه الْجِهَاتِ  
من أولِ ديسمبر إلى أولِ مايو . ولكنَّ هُبُوبَهَا - لِوَدَّ حَظُّنَا - بَدَأَ يَشْتَدُّ في  
التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ من أبريل . وما زالت تَعْنَفُ وَتَثُورُ عِشْرِينَ يَوْمًا تَبَاعًا ؛  
فَانْدَفَعْنَا - في هذه الأثناء - إلى شَرْقِ « جزائر الملوك » ، في الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ  
تَقْرِيبًا من شَمَالِ خطِ الاسْتِواءِ ؛ ذَلِكَ ما قَدَّرَهُ الرُّبَّانُ . وَكُنَّا في  
اليومِ الثَّانِي من شهرِ مايو . وقد هدأت الرِّيحُ الشَّائِرَةُ ، ولكنَّ الرُّبَّانَ قد  
أُنْذِرْنَا بِاقْتِرَابِ عَاصِفَةٍ أَشَدَّ . وكان ذلك الرُّبَّانُ من أَوْسَعِ الْمَلَّاحِينَ خِبْرَةً  
بِتَغْيِيرِ الْجَوِّ وَتَقَلُّبِ الْبَحْرِ ، وقد أَكْسَبَتْهُ الْعَرَانَةُ وَالْتِمَرُّسُ بِأَحْوَالِ هَذِهِ  
الْبَحَارِ حَصَافَةً نَادِرَةً وَالْمِعْيَةَ لَا تَكَادُ تُحْطَى . وقد أَمَرْنَا بأن نُعِدَّ الْعُدَّةَ



لمكافحة العاصفة الهوجاء التي ستهب علينا في القد .

وقد تحقق لنا صدق ما قال . وهبت علينا ريح الجنوب عيفة عاصفة . وكنا على أتم أهبة ؛ فطوينا الشراع وأمسكنا بالسارية ، ولكن العاصفة - لسوء الحظ - كانت تزداد شدة وعنفًا . ولم نجد لنا من حيلة تخفف من أضرارها إلا أن نسير حيث تكون الرياح خلفنا ؛ فانزنت السفينة قليلًا . وجعلنا الشراع الكبير بحيث لا يعارض العاصفة . ولكن خاب حسابنا ، وأخطأ ظننا ؛ فقد عفت الريح ، ومزقت الشراع تمزيقًا ، واضطخبت الأمواج ، وظلت السفينة في عرض البحر لا يقر لها قرار . ثم أعقت العاصفة ريح عاتية ؛ فدفعتنا إلى مسافة بعيدة لا أحسبها تقل عن خمسمائة ميل نحو الشرق ، فأصبخنا في مكان من البحر مجهول لا أعتقد أن سفينة قبلنا قد وصلت إليه ؛ وما أظن أن ربانا - بالغة ما بلغت خبرته بالبحار - يستطيع أن يعرف موقع هذا المكان الثاني السحيق . ولم نكن نشكو - حينئذ - قلة الزاد ، ولم نصب سفينتنا بعد كل هذه العواصف بسطب ، ولم يمرن أحد من رجالنا ، على ما كابدوه من الجوع والشدة . ولم يكن يعوزنا حينئذ إلا الحصول على الماء العذب .

### ٣ - في أرض الممالقة

وفي اليوم السادس من يونيو عام ١٧٠٣ م ، كان أحد ملاحينا مقتليًا ذروة السارية ، فلاحث له الأرض من بيد . وما أخبرنا بذلك ، حتى ولينا سفينتا شطرها . ولما جاء اليوم السابع عشر رأينا اليابسة بوضوح ، ولم نستطع أن نعرف أين نحن ؟ وهل وصلنا إلى جزيرة كبيرة ، أم قارة مجهولة ؟ فاقتربنا منها ، وألقينا مراسي السفينة ، وأرسل ربانا اثني عشر ملاحًا في زورق صغير ، ومعهم أسلحتهم ؛ ليدافعوا عن أنفسهم إذا دهمهم خطر ، وقد أوصاهم الربان بالبحث عن ماء في هذه الأرض ، وأعطاهم أواني ليملئوها ماء ، فاستأذنت الربان في مصاحبتهم ، فلم يردد في الإذن لي . ولم نهبط تلك الأرض حتى سیرنا باحثين عن نهر أو عين ماء ؛ فلم نر فيها أثرًا واحدًا يدلنا على أنها مأهولة بالسكان . فصار رجالنا بالقرب من الشاطئ ليبحثوا عن الماء ، وسرت أنا - لسوء حظي - منفردًا . وقد دفني خب الاستطلاع إلى التوغل في تلك الجهة نحو ميل ؛ فوجدتها أرضًا صخرية مجدية قراء . ثم أدركني



التعب والملل ؛ فرجعت مُتَبَاطِئًا في سَيرِي من حيثُ أَتَيْتُ . وَبَيْنَا أَنَا مُقْتَرِبٌ مِنَ السَّاطِئِ إِذْ رَأَيْتُ رِفَاقِي يَجْدُرُونَ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَغَبَةً فِي إِقَادِ حَيَاتِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ ، وَرَأَيْتُ عِمْلَاقًا هَائِلَ الْجِسْمِ يَتَعَقَّبُهُمْ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ . وَلَكِنْ رِفَاقِي كَانُوا عَلَى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنْ ذَلِكَ الْعِمْلَاقِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعِ اللَّحَاقُ بِهِمْ .



وَمَا رَأَيْتُ ذَلِكَ حَتَّى أَسْرَعْتُ بِالْفِرَارِ مُتَسَلِّقًا قِمَّةَ جَبَلٍ وَغَرٍّ . ثُمَّ نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ مَرَجًا ، وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الْعَجَبُ مِنْ ارْتِفَاعِ حِثَائِهِ إِلَى عَشْرِينَ قَدَمًا . فَدِدِمْتُ أَشَدَّ النِّدَمِ عَلَى مُجَازَفَتِي بِالْخُرُوجِ إِلَى

هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَالسَّيْرِ فِيهَا عِيدًا عَنْ رِفَاقِي ، وَعَلِمْتُ أَنَّ حُبَّ الْإِسْتِظْلَاجِ قَدْ سَاقَنِي إِلَى الْحَتْفِ وَالْهَلَاكِ . وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الدَّرِيَّةَ لَا يُبِيدُ ، فَأَسْلَمْتُ

أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، وَمَشَيْتُ فِي طَرِيقٍ كَبِيرَةٍ تَنْتَهِي بِحَقْلِ مَرْزُوعٍ شَعِيرًا ، فَسَرْتُ قَلِيلًا دُونَ أَنْ تَقَعَ عَيْنِي عَلَى إِنْسَانٍ . وَكَانَ وَقْتُ الْحَدِّ قَدْ دَنَا . وَنَضَجَتْ سَنَابِلُ الْقَمْحِ ، وَوَصَلَ ارْتِفَاعُهَا إِلَى أَرْبَعِينَ قَدَمًا أَوْ أَكْثَرَ .

فَسَرْتُ سَاعَةً مِنَ الزَّمَنِ دُونَ أَنْ أَصِلَ إِلَى نِهَايَةِ الْحَقْلِ . وَكَانَ يُحِيطُ بِهِ سِيَاجٌ عَالٍ يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَعَشْرِينَ قَدَمًا . وَقَدْ عَجِبْتُ لِضَخَامَةِ الْأَشْجَارِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَطُولِهَا الَّذِي لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُهُ عَقْلٌ ؛ حَتَّى لَيْسْتَ حِيلٌ عَلَى أَنْ أَقْدَرَ ارْتِفَاعَهَا . وَبَحِثْتُ طَوِيلًا عَنْ ثُغْرَةٍ فِي ذَلِكَ السِّيَاجِ لِأَتَقَدَّمَ مِنْهَا إِلَى الْحَقْلِ . وَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ وَقَعَ نَظْرِي عَلَى عِمْلَاقٍ آخَرَ فِي الْحَقْلِ الْمُجَاوِرِ ؛ فَرَأَيْتُهُ فِي مِثْلِ طُولِ الْعِمْلَاقِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ يَتَعَقَّبُ رِفَاقِي الْهَارِبِينَ !

#### ٤ بين سَنَابِلِ الْقَمْحِ

وَهُنَا عَلِمْتُ أَنَّ فِي بِلَادِ الْعِمَالِقَةِ ؛ فَقَدْ كَانَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي مِثْلِ ارْتِفَاعِ الْمِثْدَنَةِ . وَكَانَتْ مَسَافَةُ خُطْوَتِهِ نَحْوَ بَعْدَةِ أَمْتَارٍ . فَتَمَلَّكَنِي الدُّعْرُ ، وَكَادَ يَنْخَلِعُ قَسْبِي مِنْ شِدَّةِ الْهَلَعِ ؛ فَاسْرَعْتُ أَحَاوِلُ الْإِخْتِفَاءِ بَيْنَ



سنايل القمح ، وانكَلَّتْ من تُفْرِقَ قَرِيبَةً ، فَلَمَحَتْ العِلاق من بعيد  
وبعد قليل صاح بصوت كالرعد القاصف ، يكاد يُصِمُّ الأذان : فحضر إليه  
سبعة رجال - في مثل طوله وضخامته - وفي يد كل واحد منهم منجل  
صغير في حجم سِتِّ مناجل كبيرة من مناجِلنا . وكان زِيْهُمْ يَدُلُّ على  
أنهم خَدَمٌ لَدُنْكَ السَّيِّدِ ؛ فقد جاءوا مُتَّيْنِ نِدَاءَهُ ، وأقبلوا يحصدون سنايل  
القمح بمناجلهم - حيث كنت مُتَحَبِّبًا - فجزيت مبتعدًا عن مكانهم .

ولم يكن من السير على أن أُنْطَلِقَ في عَدْوِي ؛  
فقد كانت سنايل القمح - لشدة تقاربها - تكاد  
تلتصق ، وكان بعضها لا يَبْعُدُ عن بعض إلا  
بمقدار قدم واحدة .



على أنني بذلت جُهْدِي حتى وصلت إلى آخر  
مكان أستطيع الوصول إليه ، إذ اعترضتني  
كومات من السنايل المُشْتَبِكَةِ . ولقد حاولت أن أخرقها أو أجوس  
خلالها ، فلم أجد إلى ذلك سبيلاً : فقد جَفَّ كثيرٌ منها ، وأصبح حَكْمًا .  
شائِكًا مُدْبَسًا قويًا كأطراف المِدى ؛ فخشيت أن ينفذ إلى جسمى

فبهِلَكِي . وسمعت أصوات الحاصدين على مسافة قريبة مني ، وكان الإعياء  
قد بلغ مني كل مبلغ ؛ فتملكتُني اليأس بعد أن خارت قواي ، فرقدتُ  
بين أخذودين من الأخاديد التي شقها المحراث ، وقد تيسَّت من الحياة .  
وذكرتُ وطني العزيز ، وتصورتُ أرملي وولدي اللذين أوشكا أن  
يتيتا ، وندمتُ أشدَّ الندم على جنوني الذي دفعني إلى هذه الرحلة  
المشومة ، مخالفًا نصيحة خُصماي وتشفع أهلي بي ألا أفارقهم ، وأيقنتُ  
أن آخرتي قد دنت . ثم ذكرتُ بلاد « ليلبوت » التي فررتُ منها ،  
وكيف كنت فيها عَمَلًا هائلًا بين أقزام صغار ، وكيف استطعت أن  
أستولي - بمفردي - على أسطول إمبراطورية بأشهرها ، وكيف قُنتُ  
وَحْدِي بأعمال جلية باهرة سَتَبَقِي خالدة على مرَّ الدهور في تلك البلاد ،  
وسيتبناها التاريخ فلا يُصدَّقها ذراريُّ الأقرام وحفدةُهم - لغرابتها وبعدها  
عن مألوفهم - وإن أجمع أسلافهم على أنهم رأوها رؤية العيان .

ورأيت الفرق شامعًا بين الحالين ، قفاضتُ نفسي باللوعة والألم ، فقد  
انتقلتُ حالي من الضدِّ إلى الضدِّ ، وأصبحتُ في هذه البلاد - لِقَرطِ سنايتي -  
الوَحُّ لِأهلِها كما كان يَلُوحُّ لي أقزام « ليلبوت » . ولعلَّ هذا هو أهونُ

ما ألقاه من الشقاء في هذه البلاد : فقد أقسنتني التجربة والملاحظة أن  
المخلوقات الإنسانية تكثر قوتها ويشد طغيانها ، كلما قوى بأسها  
واشدت قوتها . وثمة أصبحت أترقب الهلاك بين لحظة وأخرى ،  
وأتوقع أن يمزقني أول من يظفر بي من هؤلاء العمالقة ، وأن يزدردني  
بسهولة .

#### ٥ - في قبضة عملاق

لقد صدق الفلاسفة حين قالوا : إن الكبير والصغير أمران نسبيان ؛  
فليس في الدنيا صغير مطلق أو كبير مطلق ، ولكن الشيء إذا قيس إلى  
غيره ظهر كبره وصغره بالمقايسة . ومن يدري ؟ فقد يضادف أقزام  
« ليليوت » أمما أخرى غاية في الضالة ، فيجدون أنفسهم بينهم - كما  
وجدت نفسي بالقياس إليهم - عمالقة بين أقزام !

ومن يدري ؟ فلعل عمالقة هذه البلاد إذا ووزنوا بغيرهم من الأمم  
المجهولة التي لم تكشف بعد ، أصبحوا - بالقياس إليهم - أقزاما ضئلا  
بين عمالقة كبار !

ولا غرو في ذلك ؛ فقد كنت عملاق العمالقة في بلاد الأقزام ، ثم  
أصبحت قزم الأقزام في بلاد العمالقة . وهكذا :  
« يُسْتَصَغَرُ الْحَيُّ الْحَقِيرُ ، وَتَحْتَهُ أُمَمٌ تَوْهَمُ أَنَّهُ جَبَّارٌ »

...



وإني لغارق في هذه الأفكار الفلسفية التي  
ملأت نفسي في هذا الموقف الحرج الرابع ،  
إذ رأيت أحد الحاصدين على مسافة ثمانية أمتار  
من الأخدود الذي اختبأت فيه ؛ فامتلات نفسي  
رُعبا ، وخشيت أن يتقدم إلى الأمام خطوة  
واحدة ، فيسحقني بقدمه سحقا ، أو يهوى

بسنبله إلى سابل القمح ، فيقطع جسmy معها شطرين . وما رأيته يرفع  
قدمه ليخطو خطوة أخرى حتى صرخت صرخات مؤلمة قوية ، وقد ملأ  
الرعب نفسي . فوقت العملاق فجأة . وأخذ يتأمل فيما حوله وينعم  
النظر في الأرض ، ليرى مصدر هذا الصوت الخافت الذي طن في أذنيه ،  
حتى اهتدى إلى ، فنظر متعجبا مدهوشا من ضآلة جسmy ، ودنا مني



— وقد اشتدَّ حذرُهُ — كما تشربُ نَحْنُ من حَشْرَةٍ صغيرة خَطَرَةٍ  
لا نعرفُ كُنْهَها : وأمسكني من وَسْطِي — بحذرٍ شديدٍ — بحيثُ يَأْمَنُ  
كلُّ خطرٍ، قد أكون — في نظره — حيوانًا سامًّا . وكأنما خَشِيَ أنْ أَعْصِيَهُ  
أو أَخْدِشَهُ ؛ فذكرني ذلك بما فعلتُ مع ابنِ عَرَسٍ كنتُ قد أمسكته من  
وَسْطِهِ ، حتى لا يَعْصِيَنِي أوْ يَخْدِشَنِي .

ثم تشجّع قليلًا ، فأذنانِي حتى أصبحتُ على مسافةِ مِثْرٍ ونصفِ مِترٍ

من عَيْنَيْهِ ؛ لِيَتَبَيَّنَ

من وَجْهِهِ بدقةٍ .

وقد أدركتُ غرضه

— لأوَّلِ وَهْلَةٍ — فلم

أُبْدِ أَيَّ مُقاومةٍ حتى

لا يُسِيءَ الظنَّ بِي ،



فِيُلْقِيَنِي من يده ، فأهْوَيْ من ارتقاعِ سِتَيْنَ قَدَمًا أو أكثرَ . وقد شعرتُ بألمٍ  
شديدٍ ، فلم أَطِقْ ضَغْطَ أصابعه على جسمي ، وإن كان قد تفرَّقَ بِي جُهدُهُ ،  
وَحَرَّصَ على أنْ يقبِضَ على جسمي ، حتى لا أنزَلِقَ من بينِ أصابعِهِ الكبيرة .

ولم يكن في قدرتي أنْ أقاومَ إرادته ؛ فرفعتُ بصرِي إلى السماء ، وضَمَمْتُ  
يَدَيَّ إليه — كما يفعلُ الْمُتَوَسِّلُ الضَّارِعُ — واستعطفته بوضعِ كلماتٍ نَطَقْتُ  
بها بصوتَي الحَزِينِ الْمُتَهَدِّجِ . وقد كنتُ أخشى أنْ يُلْقِيَنِي بينَ لَحْظَةٍ وأُخْرَى  
إلى الأرضِ ، وَيَسْحَقَنِي بقدمه — كما نَسْحَقُ الحَشَرَاتِ الكَرِيمَةُ بِأقدامِها  
لِهَلِكِهَا — ولكنَّ أسارىءَهُ قد تَطَلَّقَتْ ، وَوَجْهُهُ قد تَهَلَّلَ بالبِشْرِ ،  
حينَ سَمِعَ صَوْتِي ورأى حركاتِي ، وأطالَ نظره فيَّ ، وقد بدَّتْ عليه الدَّهْشَةُ  
من ضالَّةِ جسمي ، واشتدَّ عَجَبُهُ حينَ سَمِعَنِي أنْطِقُ بِاللُّغَةِ — كما يَنْطِقُ  
الْأَدَمِيُّ — وإن لم يَفْقَهُ لَهَا مَعْنَى . ولم أستطعُ أنْ أَكْفُ عن التَّهَدُّ  
وَالزَّفَرَاتِ ، وَهَمَلْتُ عَيْنَايَ بِالْأُمُوعِ ، قُلْتُ لَهُ ضارِعًا يَا كَيَّا :

« شَدَّ مَا يُؤْلِمُنِي لَمَسُ إِسْبَعَيْكَ ، يَا سَيِّدِي الْعَمَلَقُ ! »

وكانما فطنَ لِمَا شعرتُ به من الألمِ — وإن لم يفهمْ قَوْلِي — فوضعتُ  
مُتَرَفِّقًا في جَنَبِهِ ، وانطلقَ يَعدُّو إلى سَيِّدهِ الذي رأيتُهُ في الحَقْلِ من قبلُ ،  
وهو زارعٌ غنيٌّ . ولما رَأَيْتُني حتى دَهِشَ ، وأخذَ عودًا صغيرًا من الأرضِ  
— في حَجْمِ العصا التي نَتَوَكَّأُ عليها في بلادنا — ورفعَ بها أطرافَ ثَوْبِي وهو  
يَحْسِبُهُ غِطَاءً وَهَبْتَنِيهِ لِي الطَّيْمَةُ — كما تَهَبُ لِلطُّيُورِ الرِّيشَ — وتَفَخَّ في



شعري ليتبين وجهي بوضوح. ثم نادى خدمه، وقال لهم - فيما فهمت من دهشته وإشاراته - إنه لم ير طوال حياته حيوانا في حقوله يشبهني. ثم وضعني على الأرض متلطفًا، فنهضت قائمًا، ومشيت أمامه جيئةً وذهابًا لأريه أنني غير طامع في الحرب. ثم جلسوا جميعًا، مُحيطين بي إحاطة الدائرة، وظلوا يرقبون حركاتي، فرفضت قبعتي لأحبيهم.

وأظهرت احترامي لذلك السيد، وانكفأت على قدميه ضارعًا إليه - بصوت جهوري - وأخرجت من جيبِي كيس نقودي، وقدمته إليه بخضوع شديد؛ فقلبه حذرًا - عدة مرات - بـ «دبوس» كان في ثيابه، ولم يفهم ما هو. فأشرت إليه أن يُعيد الكيس إلى الأرض ثانية، وما أعاده حتى أخذته يدي وفتحته، ووضعت في يده كل ما يحويه من الذهب فتأمله قليلًا، وأشار إلى برده إلى جيبِي، ولم يفهم منه شيئًا. وقد أيقنت أن ذلك الزارع قد اقتنع بأنني آدمي عاقل صغير وظلَّ يُحدثني كثيرًا وأنا لا أفهم لِكَلامه معنى. وكان صوته يكاد يُصمُّ أذني، وهو أشبه بجَلَجلَة طاحونة كبيرة، وكانت ألقاظه مترنة واضحة المقاطع. فأجبتُه على كلامه - الذي لم أفهمه - بكلِّ اللغات التي أعرفها، بصوت جهوري؛ فكان

يُدني أذنه مِنِّي حتى تكونَ على قِدمِ مِثْرٍ ونصفِ مترٍ من فمي، ولكنه لم يفهم شيئًا.

## ٦ - في بيت العلاق

وبعد قليل صرَفَ خدَمَهُ إلى أعمالهم، وأخرج من جِيبِهِ مِنْدِيلًا طَوَاهُ نِصْفَيْنِ، ثم بَسَطَهُ على صفحة يَدِهِ اليُسْرَى، ووضعها على الأرض، وأشار إلىَّ بأن أضعَدَ على يده؛ فلم أجد صعوبة في ذلك، فقد كانت يده أكبر من جسمي كله. وقد خَشِيتُ

أن أهوى من يده - إذا وقعت عليها - إلى الأرض؛ فطَرَحْتُ نَفْسِي فوق مِنْدِيلِهِ متمدِّدًا.

ثم نثي المِندِيلَ على

فَنَطَيْتُ جِسمِي كُلَّهُ، وحملني في يده إلى بَيْتِهِ. ثم نادى زَوْجَهُ لِيُريَهَا العَجِيبَةَ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا. وما رَأَتْني حتى صَرَخَتْ صَرَخَاتٍ مُفْرَعَةً، وتراجعت إلى الوراء - كما تفعل نِسَاؤُنَا إذا أَبْصَرْنَ وَرَعًا أو ضِفْدَعًا سامًّا أو عُنْكَبًا -





ولكنها اطمأنت إلى بعد قليل . حين رأت إشاراتى وحرركاتى وأعمالى .  
وكيف أفطن إلى الإشارات التى يُبديها لى زوجها ، ثم ألفت رؤيتى  
وأحببتى حباً شديداً .

ولما جاء وقت الظهر أعدَّ الخادِمُ مائدةَ العشاء ؛ فرأيت أكداً من  
اللحم فى صحفةٍ قطرها نحو أربع وعشرين قدماً . وجلس الزارعُ  
وزوجه وثلاثة من أولاده وجدةٌ عجوزٌ حولَ المائدة . وما استقرُّوا فى  
أماكنهم ، حتى أجلسنى الزارعُ فوق المائدة على مسافةٍ قريبةٍ منه .

وكان ارتفاعُ المائدةِ  
لا يقلُّ عن ثلاثين  
قدماً ؛ فابتعدتُ عن  
حافتيها حتى لا أسقطَ  
إلى الأرض من هذا  
الارتفاع العظيم .  
وقطعتُ الزوجُ



شريعةً من اللحم وكثرةً من الخبز ، ووضعتُهما فى طبقٍ من الخشب

لأكل منهما ؛ فأشرتُ لها شاكرًا ما تفضَّلت به على . ثم أخرجتُ من  
جيبى سيكيتى وشوكيتى ، وأكلتُ ؛ فكان ابتهاجهم بذلك عظيمًا .

ثم أمرتِ الزوجُ إحدى خدَميها بإحضارِ قدحٍ صغيرٍ ، وملأته ماءً ؛  
فلم أستطع أن أرفعه إلى فمى إلا بعد جهدٍ شديد . ثم أشار إلى الزارعِ أن  
أقربَ من صحفةِ الطعام ، فلبَّيتُ إشارتهُ مسرعًا فى سترى فوق المائدة ،  
فتكأءدنى - فى طريق - قطعةً صغيرةً من الخبز ، فسقطتُ على وجهى .  
ولكننى - لحسنِ حظى - لم أصبُ بسوءٍ ، فوقتُ على قدمى ، فرأيتُ  
على أساريهم أماراتِ العطف والإشفاق ، ودلائلَ الخنوع . فابتسمتُ لهم  
منحنيًا عدةً مرَّاتٍ ، شاكرًا عطفهم على ، وأظهرتُ لهم أننى لم أصبُ  
بسوءٍ ، وسرتُ نحو السيدِ لألِثمَ يده . وما دنوتُ من أسننِ أولاده -  
وهو طفلٌ خبيثٌ لم يعمدُ الماشرةَ من عمره - حتى أمسكَ بساقى ، ورفعنى  
فى الهواء . فامتلاتُ نفسى رعبًا وهلعًا ، وأسرعَ أبوه فأنقذنى من يده ،  
وصفَعَهُ على أذنيه اليسرى - جزاءَ وقاحتِهِ - صفعةً قويةً ، لو لطمَ بها  
كوكبةً من قرسانا لأماتهم جميعًا !

ثم أمره أن يكفَّ عن الأكل وينهبَ بيدًا عن المائدة ، عقابًا له على



عمله . ولكنني خشيتُ أن يَضْطَغنَ على ذلك الطفلُ ، وأنا أعلمُ أن أكثر الأطفال - في مثل هذه السن - حَمَقٌ مُتَهَوِّرونَ . وكثيراً ما تَدْفَعُهُم حِمَاقَتُهُمْ وَتَهَوُّرُهُمْ إلى إيذاء الطيور والأرانب وصغار الكلاب فَجَثَوْتُ على رُكْبَتَيَّ مستعطفاً السَّيِّدَ على ولده ليصَفِّحَ عنه ؛ فأجابَ السَّيِّدُ رَجَائِي ، وَصَفِّحَ عن طفله ، وأعادَه إلى مكانه من المائدة . فتقدَّمتُ من الطفل ، ولشمتُ يده ؛ فابتهجَ وسُرِّيَ عن نفسه ، وأصبحَ صديقاً حميمياً لي منذ ذلك اليوم .

#### ٧ - مَازِقُ مُخْرِجَةٌ

وإني لَأَتَفَدَّى معهم - وأنا آمِنٌ مُطمَئِنٌّ - إذ قفز على المائدة قِطُّ السَّيِّدَةِ - المَدَلَّلُ المَحْبُوبُ - قفزةً عنيفةً ؛ فأحدثَ حَلَبَهُ وضوضاءَ أزعجتاني ومَلَأَتَا قَلْبِي خَوْفاً . وكان ذلك القِطُّ في مثلِ ضَخَامَةِ ثلاثةِ ثيرانَ ، فإذا ماءً سمعتُ لِمَوَائِهِ مثلَ قَصْفِ الرُّعُودِ وَجَلَجَلَتِهَا وقد رأيتُ السَّيِّدَةَ تَحْنُو عَلَيْهِ وتُدَلِّلُهُ وتَقْدِّمُ إليه الطعامَ ، وهي تُدَاعِيهِ وتُرَبِّئُهُ ؛ فامتلات نفسي رُغْباً من رُؤْيَاةِ هذا الحيوانِ الشَّرِيسِ على الطَّرَفِ الآخرِ من المائدة ، وبيني وبينه مسافةٌ حميرَ قَدَمًا . وكانتِ السَّيِّدَةُ مُمَسِكَةً بِقِطِّهَا حتى

لا يَنْقُضَ على فَبَزْدَرَدَنِي - كما تَزْدَرِدُ قِطَاطُنا الحشرات - ولكن الله كَتَبَ لي السَّلَامَةَ من كلِّ سوءٍ ؛ فلم يَلْتَفِتِ القِطُّ إلَيَّ . وبعد قليل أجلسني السَّيِّدُ على بُعْدِ مِثْرَيْنِ وَنِصْفِ مِثْرٍ مِنَ القِطِّ ، لِيَرَى كيفَ أَصْنَعُ . ولقد كنتُ واثقاً كلَّ الثَّقةِ أَنَّ الجُبْنَ في أمثال هذه المَواطِنِ كثيرٌ ما يَقُودُ الإنسانَ إلى حَنْفِهِ ؛ فإذا هَرَبَ الإنسانُ من حيوانٍ مَفْتَرَسٍ - أو ظهرَ عليه الخَوْفُ - تَعَقَّهُ ذلك الحيوانُ وَطَمِعَ فيه . وأسرعَ إلى اقْتِرَاسِهِ . فاعتزمتُ أن أَلْجَأَ إلى الصَّبْرِ ، وَأَعْتَصِمَ بِشِجَاعَتِي أمامَ هذا القِطِّ المَتَوَحَّشِ الشَّرِيسِ فتقدَّمتُ إليه نَحْوَ ثَمَانِي عَشْرَةَ إصْبَعًا - وأنا رابطُ الجَاشِ - فتراجَعَ القِطُّ أمامي تَرَاوَعَ الخَائِفِ الحَذِرِ .

أما خَوْفِي من الكِلَابِ فقد كان أَقْلَ من خَوْفِي من القِطَاطِ ؛ فقد دخل التُّرْفَةُ ثَلَاثَةُ كِلَابٍ أو أَرْبَعَةٍ - فيما أَذْكَرُ - ورأيتُ في هذه الكِلَابِ كَلْبًا كبيراً جداً . وهو في مثلِ صَخَامَةِ أَرْبَعَةِ أَفْيَالٍ ، ورأيتُ كَلْبًا آخَرَ من كِلَابِ الصَّيْدِ ، يَفُوقُهُ طُولًا ، وَيَهْلُ عَنْهُ ضَخَامَةً .

وما انتهيتُ من طعامِ الغَداءِ حتى دخلتُ إحدى المَرَضِيعَاتِ ، وهي تحملُ بين ذِرَاعَيْهَا رَضِيعًا لم تتجاوزَ سِنُهُ الحَوْلَ . ومارأيتُ ذلك



الرَّضِيعُ حَتَّى مَلَأَ الْبَيْتَ صُرَاخًا مَزَعًا . وَكَأَنَّمَا  
حَسِبَنِي دُمِيَّةً يَلَهُو بِهَا : فَأَمَكَنِي أُمُّهُ وَأَذَنَنِي  
إِلَيْهِ . وَمَا فَعَلْتُ حَتَّى أَمَسَكَ بِي ذَلِكَ الرَّضِيعُ ،  
وَوَضَعَ رَأْسِي فِي فِيهِ . فَصَرَخْتُ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ  
وَالرُّعْبِ : فَذُعِرَ الْفُطْلُ ، وَأَلْقَانِي مِنْ يَدِهِ ،  
فَهَرَبْتُ . وَقَدْ كَانَ رَأْسِي لَا بُدَّ مَهْشَمًا لَوْ لَمْ أَقَعْ



عَلَى نَوْبِ أُمِّهِ الَّذِي فَرَشْتُهُ تَحْتِي . وَقَدْ حَاوَلَتِ الْمُرْضِيعَةُ أَنْ تَتَرَضَّى  
رَضِيعَهَا بِوَسَائِلِ أُخْرَى ، فَلَمْ تُفْلِحْ . فَلَمَّا عَجَزَتْ عَنْ تَسْلِيَتِهِ أَرْضَعَتْهُ ،  
فَكَفَّ عَنْ الصِّيَاحِ !

وَلَمَّا انْتَهَيْنَا مِنَ الْفَدَاءِ ، تَأَهَّبَ السَّيِّدُ لِلْخُرُوجِ ، وَقَدْ أَوْصَى بِنِ السَّيِّدَةِ  
خَيْرًا ، كَمَا فَهِمْتُ مِنْ إِشَارَاتِهِ الَّتِي أَشْعَرَتْنِي بِحُرْمَةِ عَلَى الْخِيَاةِ بِأَمْرِي .  
وَشَعَرْتُ بِحَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى الرُّقَادِ - بَعْدَ أَنْ جَهَدَنِي التَّمَتُّ -  
وَفَطَنْتُ رَبَّةَ الدَّارِ إِلَى ذَلِكَ : فَأَرْقَدْتَنِي فِي سَرِيرِهَا ، وَغَطَّيْتَنِي بِمِنْدِيلٍ  
أَيْضًا لَا يَقِلُّ فِي حَجْمِهِ عَنْ شِرَاعِ أَكْبَرِ سَفِينَةِ حَرْبِيَّةٍ .  
وَمَا أَطْبَقْتُ حَفَنِي حَتَّى اسْتَلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ . وَقَدْ رَأَيْتُ - فِي

مَنَامِي - أَنَّنِي قَدْ عُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي ، وَنَعِمْتُ بِالقُرْبِ مِنْ أُسْرَتِي : فَفَرِحَ  
بِعَوْدَتِي وَلَدِي وَابْنَتِي وَزَوْجِي . ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي بَعْدَ سَاعَتَيْنِ ،  
فَزَادَتْ لَوْعَتِي وَحَنِينِي إِلَى وَطَنِي وَأَهْلِي ، وَوَجَدْتَنِي وَحِيدًا فِي حُجْرَةٍ فَسِيحَةٍ  
يَزِيدُ عَرْضُهَا عَلَى ثَلَاثِمِائَةِ قَدَمٍ ، وَارْتِفَاعُهَا عَلَى مِائَتَيْ قَدَمٍ ، وَلَا يَقِلُّ  
عَرْضُ السَّرِيرِ عَنْ ثَمَانِيَةِ عَشْرَ مِترًا . وَكَانَتْ رَبَّةُ الدَّارِ قَدْ أَغْلَقَتْ عَلَى  
الْبَابِ . وَذَهَبَتْ لِتُنْجِزَ أَعْمَالَ يَمِينِهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَهْبِطَ إِلَى  
الْأَرْضِ ، لِإِرْتِفَاعِ السَّرِيرِ عَنْهَا بِمِقْدَارِ سَبْعَةِ أمتارٍ . وَقَدْ اشْتَدَّتْ حَاجَتِي  
إِلَى الْخُرُوجِ . وَلَمْ يَكُنْ صَوْتِي - إِذَا نَادَيْتُ - بِبَالِغِ سَمْعِ سُكَّانِ  
الْبَيْتِ ، لِجُودِ الْمَسَافَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ حُجْرَةِ الْمَطْبَخِ الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَيْهَا تِلْكَ  
الْأُسْرَةُ . عَلَى أَنَّنِي نَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي الضَّعِيفِ ، فَلَمْ يَسْمَعْني أَحَدٌ !

## ٨ - صِرَاعٌ عَنِيفٌ

وَرَأَيْتُ فَاؤَرَيْنِ يَتَسَلَّقَانِ سَائِرَ السَّرِيرِ ، وَقَدْ هَالَتْنِي ضَخَامَتُهُمَا وَكِبَرُ  
حَجْمِهِمَا . ثُمَّ أَقْبَلَ الْفَأْرَانِ وَمَا يَجْرِيَانِ ، فَدَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ وَجْهِ : فَفَزَعْتُ  
- مِنْ ذَلِكَ - أَشَدَّ الْفَزَعِ ، وَسَلَّمْتُ سِنِّي لِلدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِي .

فَأَسْرَعَ يَمْدُو هَارِبًا ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ بِالنَّجَاةِ . وَهَكَذَا انْخَلَّتِ  
الْمَرْكَكَةُ عَنْ قَوْزِي وَانْتَصَارِي عَلَى الْفَارِسَيْنِ ؛ فَاسْتَلْقَيْتُ عَلَى ظَهْرِي  
ثَابِتَةً لِأَسْتَرِيحَ مِنَ الْعَنَاءِ ، وَاسْتَسَلَّمْتُ لِلْأَفْكَارِ .

وَقَدْ كَانَ كُلُّ فَارٍ مِنْهُمَا فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ أَكْبَرِ كَلْبٍ عِنْدَنَا . وَقَدْ  
كُنْتُ وَاثِقًا مِنْ شِرَاسِيهِمَا ؛ فَحَمِدْتُ اللَّهَ عَلَى أَنْ أَقْدَرَنِي مِنْ شَرِّهِمَا ،  
وَنَصَرَنِي عَلَيْهِمَا . وَلَوْ أَنَّي خَلَعْتُ حُسَامِي قَبْلَ أَنْ أَنَامَ ، وَوَجَّهْتُ  
هَذَيْنِ الْفَارِسَيْنِ وَأَنَا أَغْزَلُ ، لَأَفْتَرَسَانِي ، لَا مَحَالَةَ .

\*\*\*

وَبَعْدَ وَقْتٍ قَلِيلٍ جَاءَتْ رَبَّةُ الدَّارِ . وَمَا فَتَحَتْ بَابَ الْحُجْرَةِ ،  
وَرَأَتْني مُخَضَّبًا بِالْدَّمِ ، حَتَّى أَسْرَعْتُ إِلَى ،  
وَأَمَكْتُ يَدَيَّ ، وَأَذْنَتْنِي مِنْ بَصَرِهَا  
لِطَمْنٍ عَلَى . فَأَشْرْتُ بِإِصْبَعِي مُبْتَسِمًا إِلَى  
حَيْثُ الْقَارُ الَّذِي صَرَغَتْهُ ، وَأَفْهَمْتُهَا أَنَّي لَمْ أَصَبْ  
بِشَيْءٍ ؛ فَفَرَحَتْ لِّلَامَتِي ، وَأَبَدَتْ إِعْجَابَهَا  
بِشَجَاعَتِي !



وَقَدْ طَمِعَ الْفَارِسَانِ فِي لَمَّا رَأَيَاهُ مِنْ مَسَآلَةِ حُسَمَى - وَكَانَا غَايَةً  
فِي الْقِحَّةِ - فَهَجَمَا عَلَى يُحَاوِلَانِ  
اِفْتِرَاسِي .



فَاجَلْتُ أَحَدَ الْفَارِسَيْنِ بِضَرْبَةٍ  
حُسَامٍ عَنِيفَةٍ ؛ فَشَقَقْتُ بَطْنَهُ لِلْحَالِ ،  
وَحَزَّ صَرِيحًا عَلَى الْأَرْضِ مُضْرَجًا  
بِدَمِهِ .

وَمَا رَأَى الْقَارُ الْآخَرَ مَضْرَعًا  
صَاحِبِهِ ، حَتَّى خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْهَلَاكَ ؛

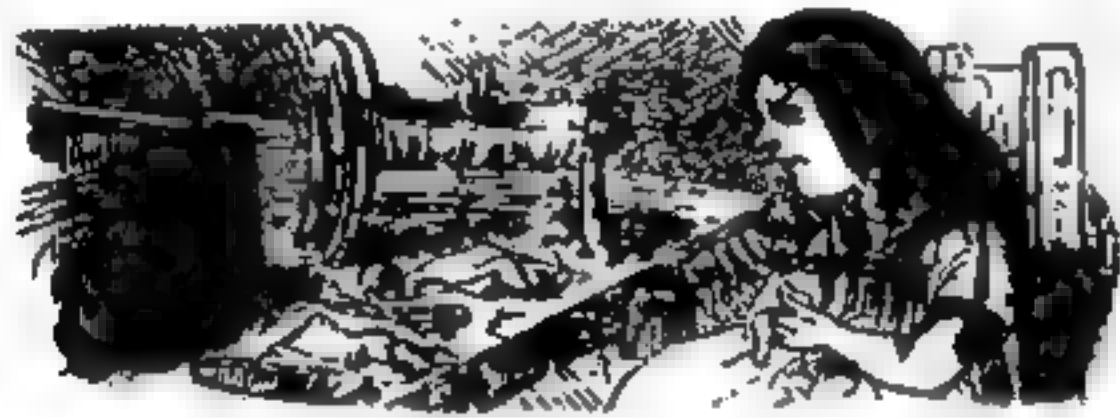


ثم أَشَرْتُ إليها أن تَضَعَنِي على الأرض ، فلم تَتَرَدَّدْ في تَلْبِيَةِ  
 طَلْبِي . فَأَشَرْتُ إليها بِاحْتِرَامٍ أَنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْخُرُوجِ ، فَأَذِنَتْ لِي فِي  
 ذَلِكَ . وَكَأَنَّمَا فَهِمْتُ بِذِكَايْهَا أَنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْخُرُوجِ لِضَرُورَةٍ حَاسِمَةٍ  
 لَا يَقْضِيهَا غَيْرِي ؛ فَأَشَارَتْ إِلَى الْبَابِ الَّذِي يَقُودُنِي إِلَى الْحَدِيقَةِ ،  
 وَرَفَعَتْنِي فِي يَدَيَّهَا ، وَسَارَتْ بِي قَلِيلًا ، ثُمَّ وَضَعَتْنِي عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَ وَرَقَتَيْنِ  
 مِنْ أَوْزَانِ الْبَقُولِ ، وَعَادَتْ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ .

### الفصل الثاني

#### ١ - بِنْتُ الزَّارِعِ

كَانَ لِلزَّارِعِ بِنْتُ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عُمرِهَا ، وَكَانَتْ - عَلَى صِغَرِ  
 سِنِّهَا - حَصِيغَةً نَادِرَةً الذِّكَا . وَقَدْ عُيِّنَتْ لِشَأْنِي مُدَّةَ إِقَامَتِي هُنَاكَ ،  
 وَاسْتَأْذَنْتْ أُمِّي فِي أَنْ تُعِدَّ لِي - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - سَرِيرًا صَغِيرًا يُنَاسِبُ  
 مَنَآلَةَ جِسْمِي ؛ فَلَمْ تَرَ أَصْلَحَ مِنَ الْأَرْجُوخَةِ الَّتِي اخْتَارَتْهَا - مِنْ قَبْلُ -



لِدُمِيِّهَا . فَهَيَّأتْ لِي تِلْكَ الْأَرْجُوخَةَ الصَّغِيرَةَ ، وَوَضَعَتْهَا فِي صُنْدُوقٍ صَغِيرٍ  
 عَلَى مِنْضَدَةٍ صَغِيرَةٍ مُعْتَمَةٍ فِي وَسْطِ الْحُجْرَةِ ، حَتَّى تُؤْمِنَنِي شَرُّ الْبُيْرَانِ .  
 وَقَدْ ظَلْتُ هَذِهِ الْأَرْجُوخَةَ سَرِيرًا نَوْمِي مُدَّةَ إِقَامَتِي فِي ذَلِكَ  
 الْبَيْتِ الْكَرِيمِ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الطُّفْلَةُ غَايَةً فِي الْوَفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْإِسْتِقَامَةِ ؛ فَهِيَ تَجْمَعُ



— إلى مزاريتها وحذقها خائناً وعظماً نادرين . وقد خاطت لي ستة قمصان من أثواب هذه البلاد ؛ وهي أثواب بيض ، غاية في الرقة ، وإن كانت — على الحقيقة — لا تَقِلُّ في كثافتها عن الأثواب التي يُصنَعُ منها شراع أكبر السفن عندنا . وكانت تفيلُ ثيابي ، وتغني بثنائي عناية فائقة ، كما كانت تحرصُ أشدَّ الحرصِ على تلقيني لغتهم ، فلا تتركُ فرصة واحدة تمرُّ دون أن كنتنهرها ؛ فإذا أشرتُ بإصبعي إلى شيءٍ بادرَتْ بتسميته لي ؛ فلم يمرَّ على وقتٍ قصيرٍ حتى أصبحتُ أسمى ما أريدُ . وقد أطلقتُ على اسم « القزم » ، كما أطلقتُ عليها اسم « الحاضنة » ؛ لأنها كانت لي — على صغرِها — كالأمِّ الرءوم . وقد كان لها أكبرُ الفضلِ في تعلُّمي تلك اللغة . ولستُ أنسى عطفها عليَّ ، وجيلَ صنيعها بي ، ما حييتُ .

## ٢ — الضيفُ الثقيلُ

وقد ذاع في جميع أرجاء المدينة أن أحدَ أعيانها قد عثر — في حقلٍ من حقوله — على حيوانٍ صغيرٍ الجسم ، في صورة آدمي ، وهو قادرٌ على تقليد الإنسان في جميع حرركاته وأعماله وكلامه ، وأنه يعرفُ كثيراً من ألفاظ لغتهم

ويسيرُ على قدميه كما يسيرُ الناسُ ، وهو دمثُ الأخلاق ، سهلُ القيادِ ، لطيفُ المعاشرة ، يلبّي من يُناديه ، ويُطيع ما يُؤمرُ به ، وهو غاية في ضآلة الجسم ، ورقّة البشرة ، وبياض اللون .

...

وفي ذات يومٍ وفدَ أحدُ الجيران إلى بيت السيد ليتحقق صدق ما سمعه عني . وكان ذلك الضيفُ صديقاً حميماً لربِّ الدار ، وهو زارعٌ مثله ، وكان شيخاً طاعناً في السن . وما أظهرَ للسيد شوقه إلى رؤيتي ، حتى أحضرني إليه ، ووضعني فوق المائدة ، وأمرني بالسَّيرِ عليها أمامه ؛ فلم أتردد في إطاعة أمره . ثم سَلَّتُ حُسامي أمامه ، وأَعَمَدْتُهُ ثابته ، ولم أَدخِرْ وسعاً في تكريم الضيف ، والتودُّد إليه ، وإظهار كلِّ احترام له . وقد حَيَّتهُ بُلغته ، ورحَّبْتُ به ، وسألته مُتأدِّباً عن صحته ، ولم أنس شيئاً ممَّا أشارتُ عليَّ به حاضنتي الصغيرة . وكانت الشيخوخة قد أضعفتُ بصرَ هذا الشيخ الطاعن في السن ؛ فأخرجَ مِنْظاره لِيَتَبَيَّنَ له صورتي ، فلم أَمَّاكُ أَنْ أَضْحَكَ . وكاننا أدرك أفراد الأسرة سِرَّ ضحكِي ، فأغربوا في الضحك جميعاً ؛ فامتعضَ الشيخ ، وظهرتُ على أساريره أماراتُ



الغضب ، واضطعن عليّ . ولكنه أسرّ ذلك في نفسه ، وعزم على الانتقام مني في الحال . فأوحى إلى ربّ البيت أن يعرضني في الأسواق ليكسب بذلك مالا طائلا ، وأقنعه بأن جميع السكان - في مختلف المدن - سيقبلون على رؤيتي ، ولا يترددون في دفع ما يطلبه على ذلك من الأجر .

وفي صباح الفد أخبرني الحاضنة الصغيرة بكل ما قاله الشيخ الحمود . وقد بكت من ذلك بدموع غزيرة ، وخشيت أن يصيبني أذى من بعض النظارة الذين قد يدفعهم الفضول إلى العنف بي ، وأكثرهم قساة غلاظ القلوب .

وقد أظهرت لي ألفتها الشديدة من مقترح ذلك الشيخ ، وقالت لي : « إن أبوي قد وعداني - من قتل - بأنك ستكون لي وحدى ، ولكنهما أخلفا وعدهما حين لاحتا لهما الفائدة ، كما أخلفا وعدهما - في العام الماضي - حين أعطياي حملا ، ثم باعاه لأحد القصابين بعد أن سمته ، ولاحتا لهما الفائدة في بيعه . »

أما أنا ، فقد كنت - على الحقيقة - أقل ألفتها منها ؛ لأنني كنت أشعر

بشوق شديد إلى رؤية الناس والاختلاط بهم ، لعلّ أجد في ذلك وسيلة إلى الخروج من هذه البلاد ، أو تباح لي فرصة للعودة إلى وطني .

### ٣ - في أسواق المدن

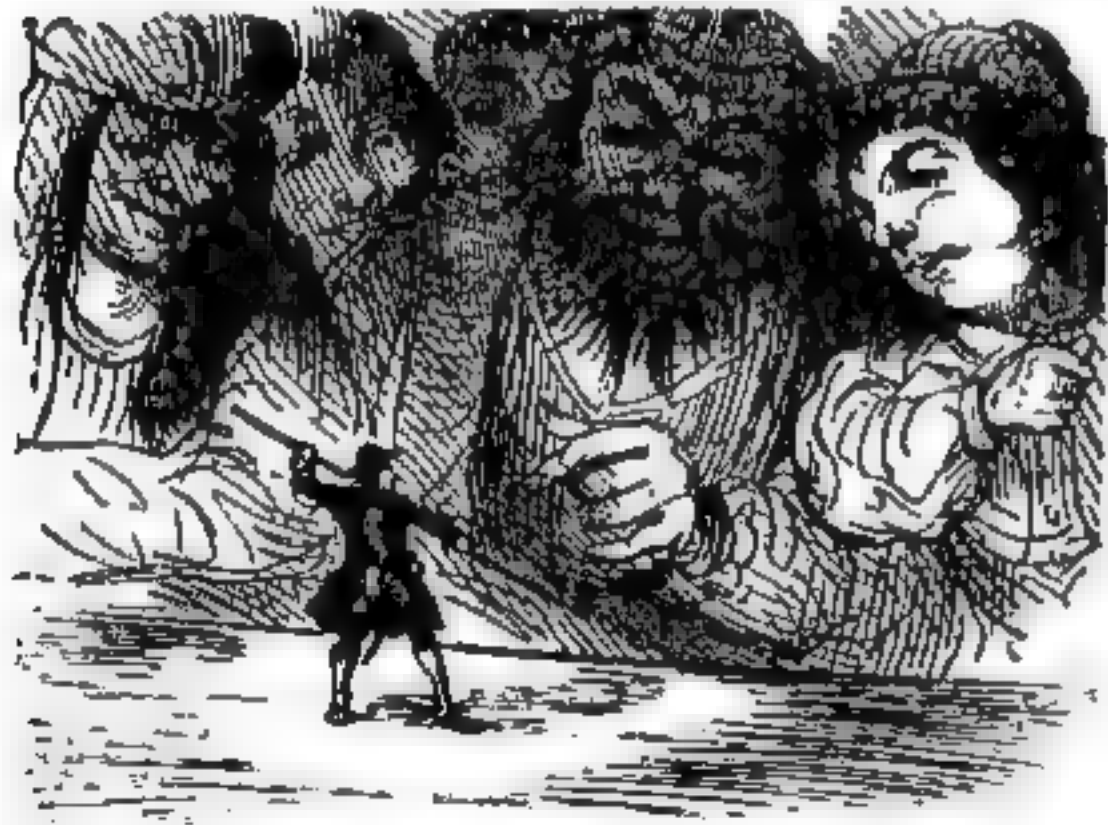
وبعد أيام قليلة أعدّ السيد كلّ معدّات السفر ، عملا بنصيحة صاحبه الشيخ . ثم وضعني - في صباح اليوم التالي - في صندوق صغير ، وسار بي إلى المدينة المجاورة ، ومعه ابنته الصغيرة . وكان الصندوق مفتاحا ، وفيه عدة قلوب لتجديد الهواء حتى لا أخنق . وقد عُيّن بي تلك الحاضنة الرفيعة ؛ فوضعت في أسفل الصندوق فراشا وثيرا ؛ حتى لا أتألم في أثناء الطريق . ولم يكسبها ذلك أيّ غناء ؛ فقد وضعت في الصندوق الفراش الذي كانت قد أعدته - من قبل - ليومي في أرجوح دُميتها الصغيرة . ولم يكن ذلك إلا فراش الدُمية التي أحلتني الحاضنة مكانتها ، وخصّني بكلّ عنايتها ، بعد أن استبدلتني بالدُمية ؛ لأنّ الدُمية كانت - لحسن حظي - جامدة صامتة ، لا تستطيع أن تجير جوابا . أما أنا ، فقد كنت - على العكس من ذلك -



دُمِيَّةً نَاطِقَةً ، رَشِيقَةً الْحَرَكَاتِ ، طَيِّعَةً ، مُلَبِّيَّةً كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا  
 وَلَا أَكْتُمُ الْقَارِيَّ أَنِّي عَانَيْتُ - فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي لَمْ  
 تَتَجَاوَزْ نِصْفَ سَاعَةٍ - كُلَّ أَنْوَاعِ الْآلَامِ . قَدْ كَانَ الْجَوَادُ يَسِيرُ  
 بِسُرْعَةٍ وَهُوَ يَعْلُو وَيَهْطُ فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهِ : فَيَرْجُو فِي الصُّنْدُوقِ رَجًا  
 عَنِيفًا . وَكَانَ الْجَوَادُ - لِضَخَامَتِهِ - يَقْطَعُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا نَحْوَ  
 أَرْبَعِينَ قَدَمًا . وَكُنْتُ فِي الصُّنْدُوقِ أَشْبَهَ بِسَفِينَةٍ تَعْلُو وَتَهْطُ وَسَطَ  
 عَاصِفَةٍ هَوَّجَاءَ ، وَكَانَتِ الْمَسَافَةُ الَّتِي قَطَعْنَاهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْقَصِيرِ  
 مَسَافَةً طَوِيلَةً جِدًّا . وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ نَزَلَ السَّيِّدُ عَنْ حَوَادِهِ ،  
 وَتَرَجَّلَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى فُنْدُقٍ كَبِيرٍ ، فَاکْتَرَاهُ مِنْ صَاحِبِهِ ، وَأَرْسَلَ  
 الْمُنَادِينَ يَطُوفُونَ شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ وَدُرُوبَهَا ؛ لِيُدْعُوا بَيْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ  
 أَحْضَرُوا خِيَوَانًا صَغِيرًا يُمَاطِلُ الْإِنْسَانَ فِي جِسْمِهِ وَشَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ  
 وَكَلَامِهِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ الْآدَمِيَّ الضَّئِيلَ يَنْطِقُ - كَمَا يَنْطِقُ النَّاسُ -  
 وَيَقُومُ بِالْعَلَابِ عَجِيبَةٍ فِي مَهَارَةٍ فَائِقَةٍ . فَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ  
 لِيَتَحَقَّقُوا صِدْقَ مَا سَمِعُوا . وَرَأَى السَّيِّدُ أَنَّ قَلِيلًا مِنْ زِحَامِهِمْ : فَلَمْ يَسْمَحْ  
 - فِي كُلِّ مَرَّةٍ - لِأَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ رَجُلًا بِالْدُّخُولِ وَالْمُشَاهَدَةِ .

وَقَدْ دَهَشَ النَّاسُ لِرُؤْيَايَ ، وَخَفَعَ حَرَكَاتِي ، وَأَنَا أَسِيرُ عَلَى الْمَائِدَةِ  
 جَيِّتَةً وَذَهَابًا ، وَأُجِيبُ عَنْ أَسْئَلَتِهِمْ قَدْرَ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ مِنْ لُغَتِهِمْ .  
 وَكُنْتُ أَحْيَى النَّظَارَةَ - فِي احْتِرَامٍ وَأَدَبٍ - وَفَقَّ إِرْشَادَاتِ الْحَاضِنَةِ  
 الصَّغِيرَةِ . وَقَدْ اتَّخَذْتُ مِنَ الدُّسْتَبَانِ الَّذِي أُعْطِيتُهُ الْحَاضِنَةُ - وَكَانَتْ  
 تَضَعُهُ فِي إِسْتِعْمَالِهَا الْوُسْطَى حِينَ تَخِيطُ الْمَلَابِسَ - قَدَحًا أَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ .  
 وَكُنْتُ أَجْرُدُ سِنِّي وَأُظْهِرُ أَمَامَهُمْ كُلَّ مَا كَعَلَّمْتُهُ - فِي حَدَاتِي - مِنْ  
 ضُرُوبِ الْقُرُوسِيَّةِ . وَقَدْ أُعْطِيتِي الْحَاضِنَةُ شَيْئًا مِنَ الْأَعْوَادِ لِاتَّخِذَ مِنْهُ

حِرَابًا أُمَثِّلُ بِهَا دَوْرَ  
 الْفَارِسِ الصَّغِيرِ . وَقَدْ  
 صَعِدْتُ إِلَى الْمَائِدَةِ  
 فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ اثْنَتَيْ  
 عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَمَثَلْتُ  
 - فِي كُلِّ مَرَّةٍ -



تِلْكَ الْأَدْوَارَ . وَمَا انْقَضَى النَّهَارُ حَتَّى ارْتَمَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ لَشِدَّةِ

ما لاقبت من الإعياء والشقة

وكان النظارة شديدي الإعجاب بمهارتي ؛ فلا يخرحون حتى يخبروا من يعرفون بما رأوه من غرائب ومذهبات . وقد بلغ زحام الجمهور أشده ، ولم يعد يطبق صبراً على الانتظار ، حتى هم - عدة مرات - باقتحام الأبواب ، والدخول عنوة .

ورأى السيد - في ذلك - وسيلة ناجحة للكسب والنمى ، فخشى أن يصيبني مكروه ، أو يلحقني شيء من أذى بعض النظارة الفضوليين ، فحظر عليهم الدنو مني ، وجعل الحاضنة قريبة من مكاني ، حتى تمنع عني كل أذى ، وأجلس النظارة على مسافة بعيدة مني ، حتى لا تنالني أي يد بسوء .

على أن تليذا خيشا أبي عليه لومه إلا أن يقذفني بجوزة صغيرة ، لا يقل حجمها عن حجم أكبر بطيخة رأيتها . وقد صوبها الخيش إلى رأسي ، وأطلقها من يده بقوة ، ولسكنها - لحسن حظي - قد أخطأتني ، ولو قد أصابت رأسي لحطمته تحطيماً . وما ألقاها حتى غضب السيد والحاضنة والنظارة على ذلك التليذ الخيش ، وعنفوه على فعلته أشد .

تصغير ، وطرده من المكان .

ثم أعلن السيد أنه سيتألف عمله في يوم السوق التالي . وقد ارتفعت على فراشي وأنا محهود القوى ، وقد بُح صوتي ، بعد أن ظلمت أمثلي وأتكلم ثمان ساعات كاملة .

ولما رجع السيد إلى بيته وفد عليه جيرانه - رجالاً ونساء وأولاداً - ليتحققوا صدق ما سمعوه عني وكانت أنبائي قد ذاعت في كل مكان . ورأى السيد وفور ما يجنيه من المال - إذا تابع عرضي في الأسواق - فعهد بأعماله المنزلية والزراعية إلى وكيل أمين ، ثم ودع زوجته - بعد أن أعد كل المعدات لسفر طويل - وسافر في السابع عشر من أغسطس عام ١٧٠٣ م . وبعد شهرين وصلنا إلى قصبة إمبراطورية «بريدنج» ، وهي على بعد ألف وخمسمائة ميل من بلده .

وقد ركب السيد جواده ، وأرذف ابنته ، فحملتني في علبه صغيرة شدتها إلى حزامها ، بعد أن بطنت داخلها ببطانة كثيفة من الجوخ . وقد عزم السيد على أن يعرضني في أسواق المدن والضواحي والقرى الشهيرة التي يمر عليها في طريقه . وكنا نقطع في كل يوم مسافة تتراوح بين ثمانين



مِثْلًا وَمِائَةِ مِيلٍ . وَكَانَتِ الْحَاضِنَةُ كَثِيرًا مَا تَشْكُو إِلَى أَبِيهَا إِسْرَاعَ الْجَوَادِ فِي سِيرِهِ ، وَتَطْلُبُ إِلَيْهِ التَّمَهِّلَ وَالْهَوَادَةَ ، مُحَافَظَةً عَلَى رَاحَتِي . وَكَذَلِكَ كَانَتْ تُخْرِجُنِي مِنَ الْعُلَّةِ - بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ - لِأَسْتَنْشِقَ الْهَوَاءَ ، وَأَرَى الْبِلَادَ الَّتِي تَمُرُّ عَلَيْهَا . وَقَدْ عَبَرْنَا سِتَّةَ نَهْرَاتٍ ، كَانَتْ - عَلَى صِغَرِهَا - أَعْرَضَ وَأَعَمَقَ مِنْ نَهْرِ النَّيْلِ . وَكَانَ أَضْيَقُ غَدِيرٍ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا مِنْ نَهْرِ « التَّامِيزِ » . وَقَدْ قَضَيْنَا فِي سَفَرِنَا عِدَّةَ أَسَابِيعَ ، وَمَرَرْنَا عَلَى ثَمَانِي عَشْرَةَ مَدِينَةً وَكَثِيرٍ مِنَ الْقُرَى وَالضُّوَاخِي . وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ أُكْتُوبَرٍ وَصَلْنَا إِلَى قَصَّةِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ ، وَاسْمُهَا « أُمُّ الْقُرَى » ، وَهُمْ يَنْعَتُونَهَا دَائِمًا بِأَنَّهَا « فَخْرُ بِلَادِ الْعَالَمِ » .

وَمَا وَصَلْنَا إِلَى تِلْكَ الْقَصَّةِ حَتَّى اكْتَرَى السَّيِّدُ جَنَاحًا كَبِيرًا فِي أَحْسَنِ شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ ، وَأَرْسَلَ دُعَاتِهِ يُذَرِّعُونَ عَلَى النَّاسِ أَنْبَاءَ الْفَرَائِبِ وَالْمُدْهِشَاتِ الَّتِي سَافَجَتْهُمْ بِهَا .

وَكَانَ السَّيِّدُ يَمْرُؤُنِي أَمَامَ الْجُمْهُورِ فِي فِنَاءٍ كَبِيرٍ ، طَوْلُهُ أَرْبَعِياتٍ قَدِيمٍ وَعَرْضُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ قَدِيمٍ ، وَفِي وَسْطِهِ مَائِدَةٌ قَطْرُهَا سِتُّونَ قَدَمًا ، يَكْتَنِفُهَا سَبَاجٌ مَتِينٌ لِيَحْوِلَ بَيْنِي وَبَيْنَ السُّقُوطِ . وَكَانَتْ أُمْلُكُ دَوْرِي - فِي كُلِّ

يَوْمٍ - عَشْرَ مَرَّاتٍ ، وَالْجُمْهُورُ شَدِيدُ الدَّهْشَةِ وَالْإِعْجَابِ بِي . وَكَانَتْ حِينَئِذٍ قَدْ تَعَلَّمْتُ أَلْفَاظًا كَثِيرَةً مِنْ لُغَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَأَصْبَحْتُ قَادِرًا عَلَى الْكَلَامِ مَعَ أَهْلِهَا بِسَهُولَةٍ ؛ لِأَنَّنِي كُنْتُ دَائِمًا الْإِثْبَاهَ وَالتَّلَقُّ لِكُلِّ مَا يَطْرُقُ سَمْعِي مِنْ أَحَادِيثِهِمْ . وَكَانَتِ الْحَاضِنَةُ الصَّغِيرَةُ دَائِبَةً الْعِنَايَةَ بِي ، فَلَا تَتْرَكُ فُرْصَةً فِي أَوْقَاتِ فَرَاحِي دُونَ أَنْ تَعَلِّمَنِي فِيهَا حُرُوفَ الْهَجَاءِ وَمَا إِلَيْهَا ، حَتَّى أَصْبَحْتُ - بِفَضْلِ عِنَايَتِهَا وَتَعَهُّدِهَا - قَادِرًا عَلَى قِرَاءَةِ كُتُبِهِمُ الْأَوَّلِيَّةِ وَفَهْمِهَا . وَكَانَتْ تُدْرِّسُنِي فِي الْبَيْتِ وَفِي الْفُنْدُقِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ نَحَلُّ فِيهِ ، وَتُعَلِّمُنِي الْقِرَاءَةَ فِي كُتَيْبٍ صَغِيرٍ يَزِيدُ حَجْمَهُ عَلَى حَجْمِ الْمُصَوِّرِ الْجُنْرَافِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يَتَدَاوَلُهُ التَّلَامِيذَةُ فِي مَدَارِسِنَا ، وَتَبْذُلُ قُصَارَى جُهْدِهَا فِي تَطْلِيحِ الْحُرُوفِ وَتَرْكِيبِ الْكَلِمَاتِ ، مُتَدَرِّجَةً مِنْهَا إِلَى الْجُمْلِ الْقَصِيرَةِ ، فَالطَّوِيلَةِ ، كَمَا كَانَتْ تُفَهِّمُنِي مَعَانِي مَا أَقْرَأُ ؛ حَتَّى وَصَلْتُ - فِي زَمَنِ بَسِيرٍ - إِلَى دَرَجَةِ جَدِيدَةٍ بِالْفِطْلَةِ وَالْإِعْجَابِ .

ووصفَنَ لها ضَالَّةَ جِسمي ، وحُسْنَ أدبي ، ودَمَانَةَ خُلُقِي ، وذَكَائِي السَّادِرَ ؛ فلم تُطِقْ جَلالَها صبرًا ، وأرسلتْ - من قُورَها - تَسْتَدْعِينِي إليها لِتَتَحَقَّقَ صِدْقَ ما سَمِعَتْه عني من أنباء مُعْجِبَةٍ . وقد ابْتَهَجَتْ جِدرَةُ المَلِكَةِ وحاشِيَتُها ابْتِهَاجًا عَظِيمًا ، حينَ تَحَقَّقَتْ صِدْقَ ما حَدَّثَها بِهِ ، وأَظْهَرَتْ عَظَمَها على وإِعْجابَها بي :



فَجَثَوْتُ على رُكْبَتِي ضارِعًا إليها أن تُشَرِّفَنِي

بِلَشْمِ قَدَمِها المَلَكِيَّةِ ؛ فَذَمَّتْ إلى خِصَرِها - متَلَطِّفةً بِاسِمةٍ - فَأَمْسَكْتُها بين يَدَيَّ ، وَلَثَمْتُ بَنانَها شاكِرًا .

وقد وَجَّهْتُ إلى أَسْئَلَةٍ عامَّةٍ عن بِلادِي ، فَأَجَبْتُ عَنها إجابةً مُوجِزةً واضِحَةً ، على قَدَرِ ما أَسْتَطِيعُ أن أُعَبِّرَ بِلُغَتِها . ثم قالت لي مَبْتَسِمةً :

« أَيْسُرُكَ أن تَعيشَ مَها في هَذا القَصرِ ؟ »

فانْحَنَيْتُ أَمامَها شاكِرًا ، وأَجَبْتُها ضارِعًا :

« لستُ - يا مَولاي - إلا عَبْدًا رَقِيقًا لِهَذا السَيِّدِ ، فَهو مالِكُ رِقِّي ،

### الفصل الثالث

## ١ - في القَصرِ المَلَكِيِّ

شَدَّ ما أَجْهَدَنِي ما كابدْتُهُ من جُهودٍ مُضْنِيَةٍ ، ومتاعِبٍ شَدِيدَةٍ ؛ فَقد كُنْتُ دائِبَ العَمَلِ في تَمثيلِ أدْوارِي - كُلَّ يَومٍ - حتى ساءَتْ صِحَّتِي ، ودَبَّ إلى دَيبِ الضَّعْفِ ، وهُزِلَ جِسمي . وكان السَيِّدُ شَرِها طَعامًا يُغْرِيه الكُنبُ ، وَيُنْسيه ما يَجْنِيهِ مِنَ الأَرَبَاجِ الطائِلَةِ كُلِّ مَعْنَى من مَعانِي العَظَمِ والوَاجِبِ الإنْسانِي . وَلَقَدْ فَقدْتُ شَهيَّةَ الأَكْلِ فَقدانًا تامًّا ، وَأَصْبَحْتُ جِلْدًا على عَظْمٍ . ورَأَى السَيِّدُ أَنِّي مُشْرِفٌ على التَّلَفِ ، فَجَلَسَ يُفَكِّرُ في وَسِيلَةٍ يَسْلُكُها لِلانْتِفاعِ بي من أَقربِ طَريقٍ قَبْلَ أن أَمُوتَ . وإِنه لَغَارِقٌ في تَفكيرِهِ إِذْ جاءَهُ أَحَدُ الأَمراءِ يَسْتَدْعِيهِ لِلذَّهابِ مَعِي ، من قُورِهِ ، إلى القَصرِ المَلَكِيِّ لِتَسْلِيَةِ المَلِكَةِ وحاشِيَتِها . وكانت أَنائِي قد ذاعَتْ في أَرْجاءِ المَمْلَكَةِ كُلِّها ، وَقَدْ رَأَتْني بَعضُ سَيِّداتِ الحاشِيَةِ فَأَعْجِبْنَ بي إِعْجابًا شَدِيدًا ، وَقَصَصْنَ على جِلالَةِ المَلِكَةِ ما رَأَيْنَهُ مِنَ المَذْهَباتِ ،



٤١  
يَتَصَرَّفُ فِي أَمْرِي كَيْفَ يَشَاءُ . أَمَّا أَنَا ، فَلَوْ كَانَ أَمْرِي بِيَدِي لَرَأَيْتُ السَّعَادَةَ  
كُلَّهَا فِي أَنْ أَهْبَ جَلَالَتِكَ الْمُلُوكِيَّةَ حَيَاتِي ، وَأَنْ أَقْصُرَ خِدْمَتِي عَلَى  
الْقَصْرِ الْكَرِيمِ !

فَالْتَقَيْتُ إِلَى السَّيِّدِ تَسَالَهُ :

« هَلْ قَبْلُ أَنْ تَبِيعَنِيهِ ؟ »

وَلَمْ يَكُنْ أَشْهَى إِلَى نَفْسِهِ مِنْ هَذَا ؛ فَقَدْ دَخَلَ فِي رُوعِهِ أَنِّي هَالِكٌ - قَبْلَ  
أَنْ أُتِمَّ الشَّهْرُ - فَرَأَى الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِلْكَسْبِ ، وَعَرَضَ عَلَى جَلَالَتِهَا أَنْ  
تَشْتَرِيَنِي بِأَلْفِ دِينَارٍ ، فَتَقْدَتُهُ الثَّمَنَ مِنْ فَوْرِهَا . قُلْتُ لِجَلَالَتِهَا ضَارِعًا :  
« مَا أَجْدَرُ مَوْلَايَ أَنْ تُضَيِّفَ - إِلَى هَذَا الْفَضْلِ الَّذِي طَوَّقَتْ بِهِ جِيدَ  
عَبْدِيهَا - فَضْلًا آخَرَ ، فَتَقْبَلَ صَدِيقِي الْحَاضِنَةَ الصَّغِيرَةَ - الَّتِي عَطَقْتُ  
عَلَيَّ وَعِينَتُ بِأَمْرِي - خَادِمَةً لِجَلَالَتِهَا ، لَتَكُونَ رَفِيقَةً لِي ؛ فَقَدْ أَقْمَتُنِي الْيَوْمَ  
بِأَنِّي نِعَمَ الْبُرْشِدَةِ الْأَمِينَةِ . »

فَأَجَابَتْنِي جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ إِلَى طِلْبَتِي فِي الْحَالِ ، وَفَرِحَ الزَّارِعُ بِهَذَا  
الْفَوْزِ ، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ سُرُورًا وَغَيْطَةً ؛ إِذْ أَصْبَحَتْ ابْنَتُهُ فِي حَاشِيَةِ الْمَلِكَةِ ،  
كَمَا تَطَلَّهَتْ أُسَارِيرُ الْحَاضِنَةِ بِشَرٍّ وَسُرُورًا .

ثُمَّ ذَهَبَ السَّيِّدُ إِلَى سَبِيلِهِ ، بَعْدَ أَنْ حَيَّانِي مَبْتَسِمًا ، وَقَالَ لِي :  
« أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ ، وَأَهْنُوكَ بِهَذَا الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، وَأَتَمِّى لَكَ السَّعَادَةَ  
الْبَاقِيَةَ ! »

فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ تَحِيَّتهُ - فِي امْتِنَاعٍ وَفُتُورٍ - وَشَكَرْتُ لَهُ أَمَانِيَّةً لِي .

## ٢ - خُطْبَةُ « جَلْفَر »

وَلَمْ يَخَفْ عَلَى جَلَالَةِ الْمَلِكَةِ مَا بَدَأَ عَلَى أُسَارِيرِي مِنْ أَمَارَاتِ الْإِمْتِنَاعِ  
وَالْفُتُورِ - حِينَ حَيَّتُ ذَلِكَ السَّيِّدَ - فَسَأَلْتُنِي عَنِ السَّرِّ فِي ذَلِكَ ؛ فَلَمْ  
أَكْتُمْهَا شَيْئًا مِنْ حَقِيقَةِ مَا حَدَّثَ ، وَقَصَصْتُ عَلَيْهَا قِصَّتِي كُلَّهَا ، ثُمَّ  
خَتَمْتُهَا بِقَوْلِي :

« إِنْ كُلُّ مَا أَشْكُرُهُ - لِهَذَا السَّيِّدِ - أَنَّهُ تَجَاوَزَ عَنِ قَتْلِ ذَلِكَ الْحَيَّوَانِ  
الصَّغِيرِ الْبَرِّ الَّذِي رَأَيْتُ مُصَادَفَةً فِي حَقْلِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ فِي قُدْرَتِهِ - حِينَئِذٍ -  
أَنْ يَسْحَقَنِي بِقَدَمِهِ سَحَقًا ، وَإِنِّي لَنْ أَنْبِي لَهُ هَذَا الصَّنِيعَ الْمَشْكُورَ .  
وَأَحْسَبُنِي قَدْ رَدَدْتُهُ إِلَيْهِ مَضَاعِفًا ؛ فَقَدْ جَنَى بِي أَرْبَاحًا طَائِلَةً لَمْ يَكُنْ  
يَعْلَمُ بِهَا طَوْلَ عَمْرِهِ . وَكَانَتْ خَاتِمَتِي مَعَهُ أَنْ بَاعَنِي لِجَلَالَتِكَ بِأَلْفِ دِينَارٍ . »

على أننى أنقِمُ منه جَشَعَهُ وَجَرِيَّةُ وِراءِ المَالِ ، دون أن تأخذه فى أمرى  
رحمةً أو شفقةً ؛ فقد أفسدَ صِحَّتِي ، وأنكرَ صُحَّتِي فى سبيلِ المَالِ ، وكاد  
يُهْلِكُنِي لولا لطفَ اللهِ بِي ؛ إذ قَبِضَ لِي جلالَتَكَ ، فَأَقْدَتَ حَيَاتِي بعد أن  
أشرفتُ على التَّلَفِ . ولولا أَنَّهُ كان شديدَ الثُّقَةِ بِأَنَّ حَيِّي وَشِيكَ ، لما  
باعَنِي لِجَلالَتِكَ بهذا الثَّمَنِ القَلِيلِ ...

على أننى لِن أَخشى شيئاً بعد اليوم ، فَحَسْبِي أَننى أَصْبَحْتُ فى كَنَفِ  
مَلِكَةٍ عَظِيمَةٍ مِثْلِكَ ، تُعَدُّ - بِحَقِّ - آيَةَ الكَرَمِ ، وَبَهْجَةَ الدُّنْيَا ، وَفَخْرَ  
العَالَمِ . وقد بدأتُ أَحِسُّ - مِنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ - أَنَّ زَمَنَ النُّحْسِ وَالشَّقَاءِ  
قد وَلَّى ، وَأَعْقَبَهُ زَمَنُ السَّادَةِ وَالرِّخَاءِ . وَإِنِّى لَأَشْمُرُ أَنَّ قُوَاى تَتَجَدَّدُ  
بِفَضْلِ هَذِهِ الرِّعَايَةِ السَّامِيَةِ .

ولقد أَلْقَيْتُ هَذِهِ الخُطْبَةَ أَمَامَ جَلالَتِهَا - وَأَنَا وَاثِقٌ مِنْ أَننى وَقَعْتُ فى  
كثيرٍ مِنَ الغَلَطِ النُّحْوِيِّ ، وَالخَطَا اللُّغَوِيِّ - وَلَكِنْ جَلالَتِهَا أَدْرَكَتْ مَحَدَاثَةَ  
عَهْدِي بِتِلْكَ اللُّغَةِ ، فَجَاوَزَتْ عَنْ كُلِّ مَا وَقَعْتُ فِيهِ مِنْ هَفَوَاتٍ ، وَأُعْجِبَتْ

بَذِكَايَ ، وَدَهَشَتْ لِمَا سَمِعَتْهُ مِنِّى . وَلَمْ يَكُنْ يَدُورُ بِخَلْدِهَا أَنَّ تَجَدَّدَ هَذَا  
الْعَقْلَ وَالذِّكَاةَ فى مِثْلِ هَذَا الحَيَوَانِ الصَّغِيرِ الَّذِى يُخَاطِبُهَا .

٣ - بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ



ومضتُ بِي - مِنْ  
فَوْرِهَا - إِلَى جَنَاحِ جَلالَةِ  
الْمَلِكِ ، وَكَانَ قَدْ عَادَ إِلَى  
الْقَصْرِ . وَمَا اسْتَقَرَّ فى  
حُجْرَتِهِ الْخَاصَّةِ حَتَّى  
جاءته الْمَلِكَةُ ، فَحَبَّتْهُ  
- مُتَلَطِّفَةً - فَرَدَّ عَلَيْهَا  
النَّحِيَّةَ بِابْتِسَامٍ . وَكَانَ  
مَلِكُ هَذِهِ الْبِلَادِ مِثَالاً  
لِلْجِدِّ وَالْحَزَمِ وَالنَّشَاطِ .  
وَمَا أَلْقَى عَلَى نَظَرَةٍ عَاجِلَةً  
حَتَّى قَالَ لِلْمَلِكَةِ ، وَلَمْ  
يَكُنْ قَدْ رَأَى وَجْهِي :



« ماذا أعجبك من هذه الحشرة ؟ »

فوضعتني تلك الملكة الحبيبة على مخبرة جلالته . وطلبت إلى أن أجيب بجلالة الملك عن سؤاله ، وأخبره باسمي .

فأوجزت لجلالته خبري . ولم تستطع الحاضنة أن تبقى بعيدة عني ؛ فاستأذنت في الدخول ، ثم قصت على جلالته كيف وجدني أبوها في حقله ، وسردت قصتي كلها . وكان ذلك الملك أعلم رجل رأيته في مملكته ، وقد توفر على درس الفلسفة وتخصص العلوم الرياضية فلما رأى وحي ومشييتي ، خيل إليه أنني ربما كنت آلة صناعية كالآلة التي تدير بنفسها سفود الشواء ، أو كالساعة التي استطاع أن يخترعها فني ماهر . ولكنه بعد أن حدثني وتبين نبرات صوتي ، وحسن جوابي ، لم يستطع أن يكتُم دهشته وإعجابه .

٤ - أقوال العلماء

فأمر الملك - من فوره - باستدعاء ثلاثة من أساطين العلماء ، كانوا - حينئذ - ضيوفا في القصر الملكي ، وكانوا يقضون فيه أسبوعا من كل

عام ، تبعاً لتقاليد هذه البلاد . وبعد أن أنعموا النظر وأتمعنوا الفكر ، وأطالوا التأمل والفحص ، تبانت آراؤهم في أمرى . ثم أجمعوا رأيهم - بعد مناقشة طويلة - على أنني فلتة من فلتات الطبيعة . لأنني لم أخلق على حسب القوانين الطبيعية المألوفة ، ولأن الطبيعة قد سلبتني - فيما زعموا - كل مؤهلات الحياة وأدوات الدفاع عن نفسي ، وحرمتني القوة والنشاط ؛ فليس في قدرتي أن أتسلق شجرة من أشجارهم ، أو أخفر الأرض ، فأتخذ فيها جحرا آوى إليه كما تفعل الأراب مثلاً . وقد فحصوا عن أسناني فحوصا دقيقا ، فافتنعوا بأنني حيوان مفترس من أكلة اللحوم . وذهب أحدهم إلى أنني جنين لم اكتمل في بطن أمي ، ولكن رفيقي أنكرا عليه هذا الزعم ، لأن أعضائي كلها



كاملة في نوعها - برغم ضآلتها - ولأنني قد عشت عدة سنين حتى اكتملت

رجولي والحيث . وقد استطاعوا أن يروا شرايختي بمجهر لدقته . ولم يستطيعوا أن يعتبروني قرمزا ؛ لأن نديم الملك - وهو أصغر قرمز وجد

في تلك المملكة - كان يُرى طولُه على ثلاثين قدماً .

وطالت مناقشتهم ، واشتدَّ جدُّهم ، ثم أطبقوا - بعد ذلك - على أنني لستُ إلا مخلوقاً شاذّاً من النوع الذي يُطلقُ عليه الفلاسفةُ اسمَ «مُداعباتِ الطبيعة» أو «فَلَتَاتِ الزَّمنِ» . وهو تعبيرٌ يُلجأُ إليه أَساتِذُ الفلسفةِ الحديثةِ الذين يُعْجِزُهم تفهُّمُ أسرارِ الكونِ ، ودقائقِ الغيبِ ، وغرائبِ الطبيعةِ ؛ فلا يجدون وسيلةً لحلِّ كلِّ فامِضٍ إلا إذا اتَّجَّهوا إلى هذه النظريةِ السَّهلةِ !

...

وما انتهوا من قرارِ هذا ، حتى اتَّفَتُ إلى الملكِ ، وقلتُ لجلالته : « إني آتٍ من بلادٍ تحوي عدَّةَ ملايين من الأناسِ » - ذكوراً وإناثاً - في مثلِ حُجُبِي ، وإنَّ أشجارَ تلك البلادِ وحيواناتها ونباتها ومساكنها تُناسبُ أحجامنا الصغيرة . وثمة تتوافرُ لي أسبابُ الدِّفاعِ عن نفسي ، ويسهلُ عليَّ أنْ أُحصِّلَ على قوَّتي وحاجاتي ، كما تحصلون عليه في بلادكم المُناسبة لأحجامكم الهائلة . »

وما سمعَ الفلاسفةُ هذا الجوابَ ، حتى علَّتْ شِفاههمُ ابْتِساماتُ

السُّخْرِيَّةِ وَالإِزْدِرَاءِ ، وقالوا لي مُتَهَكِّمِينَ :

« لقد أَحَسَّ الزَّارعُ تَلَقُّيَكَ هذه الدُّروسَ ! »

وكان الملكُ - كما قلتُ - ذكيَّ القلبِ ، واسعَ الإِطْلَاعِ ؛ فلم يَسْتَعِذْ ما قُلْتُهُ . فَصَرَفَ عُلَمَاءَهُ ، وأمرَ بِاسْتِدْعَاءِ الزَّارعِ - ولم يكن قد غادرَ المدينةَ لِحُضُنِ الحِظِّ - وسأله جلالته على انفرادٍ ، ثم واجههُ بي وبابنته الصغيرة ؛ فظهر له صدقُ ما قُلْتُهُ له . فَصَرَفَ الزَّارعَ ، وَأَوْصَى بِالحَاضِنَةِ خَيْرًا ، وترك لها العِنايةَ بأمري ، بعد أن رأى عطفها عليَّ وتلقَّها بي .

## ه - عِنايةُ الملكِ

وقد اسْتَدْعَتِ الملكُ نَجَّارَها الخاصَّ - وكان مشهوراً بصُنْعِ دقائقِ الثَّجَارَةِ - وأمرته بعملِ عُلْبَةٍ صغيرةٍ تُصْلَحُ مَكَاناً لِنُومِي وَفوقِ النَّمُودِجِ الذي قَدَّمْتُهُ أَنَا والحَاضِنَةُ . وكان نَجَّاراً ماهراً دقيقاً ذكياً ؛ فلم تَمُرَّ عليه ثلاثةُ أسابيعَ حتى أتمَّ صُنْعَ العُلْبَةِ . وكانت مِسَاحَتُهَا سِتَّ عَشْرَةَ قَدَمًا مَرَبَّعَةً ، وارتفاعُها اثنتي عشرةَ قدماً ، ولها بابٌ ونوافذٌ ، وهي تحتوي حُجَرَتَيْنِ . وبعدَ أيامٍ قليلةٍ جاءوني بِكُرْسِيِّينِ صغيرين من مادَّةٍ تُشَبِّهُ العَاجَ ،



وأحضروا إلى مائتين ، وخزانة ملابس صنعها عاملٌ مُتَخَصَّصٌ لِصُنْعِ  
دقائقِ الطُّرْفِ القَنِيَّةِ . وأعدت لي جلالةُ المَلِكَةِ أرقَّ الأثوابِ  
الحريرية ، لِاخْتَارَ مِنْهَا مَا يُبَلِّغُنِي .

وكانت جلالتي تأنسُ إلى . وتطربُ لِحدِيثِي ، ولا تصبرُ على مُفَارَقَتِي .  
ولا تأكلُ إلَّا إذا أكلتُ بِجانِبِهَا . وقد أعدت لي مائدةً صغيرةً أضعها على  
المائدةِ الكبيرة ، وأحضرتُ إلى جانبِها كرسيًا صغيرًا أَجْلِسُ عليه . وكانتِ  
الحاضنةُ تَجْلِسُ دائمًا بالقربِ مِنِّي لِتَلْبِيَةِ كُلِّ مَا أَطْلُبُ ، ولا تكادُ تَقْدُرُ  
عَنِ العِنايةِ بِلي لحظةً واحدةً .

### ٦ - حوارُ المَلِكِ

وفي ذاتِ يومٍ كان المَلِكُ يَتَخَدَّى مِنِّي ، فظلَّ يُحَادِثُنِي ، وهو مُتَجَبِّهٌ  
بِحَدِيثِي . وقد سألتني عن عاداتِ بلادِي ، وأخلاقِ أَهْلِهَا ، وَدِينِهِمْ وقوانينِهِمْ ،  
وحكومتِهِمْ وآدابِ لُغَتِهِمْ ؛ فَأَجَبْتُهُ عَنْ كُلِّ مَا سَأَلَ بِقَدْرِ مَا سَاعَفَتْنِي اللُّغَةُ .  
وكان المَلِكُ طُلْعَةً ، دَائِبَ البَحْثِ ، دَقِيقَ المُلَاحَظَةِ ، قَوِيَّ الحُجَّةِ ؛  
فظلَّ يَفَكِّرُ في شَأْنِي وَأَقْوَالِي مَلِيًّا . وقد اشتدَّ عَجَبُهُ حِينَ عَلِمَ أَنَّ في بلادِنَا

أَحْزَابًا مُتَنَافِرَةً مُتَنَاجِرَةً ، وَأَنَّ لِكُلِّ حِزْبٍ مُؤَيِّدِينَ ومُعَارِضِينَ . فَالْتَفَتَ  
المَلِكُ إِلَى وَزِيرِهِ ، وَكَانَ واقفًا خَلْفَهُ وفي يَدِهِ عَصَا بَيْضَاءَ ، كَأَنَّهَا  
تَطُولُهَا - ساريةُ سَفِينَةٍ شِرَاعِيَّةٍ كَبِيرَةٍ . وقالَ لَهُ المَلِكُ :

« أليسَ مِنَ المَوْهِمِ المَخْزِي أَنْ تَكُونَ العِظَمَةُ الإِنْسَانِيَّةُ تَافِهَةً إِلَى هَذَا  
الْحَدِّ ؟ وَأَيُّ قِيَمَةٍ لِلإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِذَا شَارَكَتُهُ تِلْكَ الحَشَرَاتُ  
الحَصِيرَةُ فِي كُلِّ خِصَائِصِهِ وَمَزَايَاهُ ؟ وَأَيُّ فَضْلٍ لَنَا مَا دَامَتْ هَذِهِ الحَشَرَاتُ  
تُمَاطِلُنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ : لَهْمُ أَطْمَاعٍ وَأَحْزَابٍ ، وَمِيزَاتٌ وَزِينَاتٌ ، وَأَفْرَاحٌ  
وَأَتْرَاحٌ ، يَصْنَعُونَ مِنْ فَضَلَاتِ الخِرْقِ أَثَوَابًا يَرْتَدُّونَهَا ، وَيَأْوُونَ إِلَى نُقُوبِ  
يُسْمُونَهَا مَنَازِلَ وَقُصُورًا ، وَيَتَّخِذُونَ لَهُمْ أَتْبَاعًا وَخَدَمًا ، وَيُلَقِّبُونَ أَنْفُسَهُمْ  
بِشَيْءِ الأَلْقَابِ والتَّعُوتِ ، وَيَكُونُ لَهُمْ - كَمَا لَنَا - فِي هَذِهِ الدُّنْيَا آرَابٌ  
وَمِشَاغِلٌ وَأَمَانِيٌّ ، وَيُحِبُّونَ وَيَكْرَهُونَ ، وَيَلْبِغُونَ إِلَى ضُرُوبِ الخِدَاعِ  
وَالْمَكْرِ والخُصُومَةِ : فَلَا تَمَازُ عِنْدَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَزَايَانَا وَنَقَائِصِنَا عَلَى السَّوَاءِ ! »  
هَكَذَا شَاءَ جَلَالَةُ المَلِكِ أَنْ يُحَقِّقَ أَبْنَاءَ جَنَسِي ، وَأَنْ يُزَيِّرَ بِقُنُونِهِمْ  
وَأَدَابِهِمْ وفَلَسَفَتِهِمْ ، وَأَنْ تَدْفَعَهُ فِلَسَفَتُهُ إِلَى النُّصْ مِنْهُمْ ، وَامْتِهَانِ شَأْنِهِمْ  
لِضَالَةِ أَجْسَادِهِمْ !

بالنضب ، وأرسلت - من فورها - تستدعي ذلك القزم . فلما حضر  
أمرت بضربه بالسياط ؛ فظلوا يضربونه ضرباً موحياً ، حتى شفى غليل منه ،  
وأدركت - بذلك الأيذاء - ثأري الذي كنت عاجزاً عن الأخذ به !

#### ٨ - في أنبوب عظمة

على أن هذا الحادث المشؤم - حادث الفرق - قد انتهى لحسن  
خطي بسلام ، فلم أخسر فيه إلا ثوبي الجديد .  
وقد طردت الملكة هذا القزم الشرير من خدمتها ، وتركته لآخذي  
وصيفاتها ؛ فاسترخت من مضايقته وخشيته منذ ذلك اليوم .  
ولم تكن هذه أول مرة أساء إلى فيها ذلك القزم ؛ فقد طالما ضايقني  
بإساءاته المتكررة . ولست أنسى ما فعله ذات يوم ، إذ تربع بي حتى  
انتهى الملك من غدائه ، ثم غافلني ذلك الخبيث وأمسك بي ، فضم  
ساقاً بإصبعيه ، وأدخلني في أنبوب عظمة - بعد أن استل ثخاعها -  
فقضت فيها إلى رقبتي .

ثم وضع تلك العظمة على المائدة ، وذهب إلى سبيله ، ولبنت في ذلك

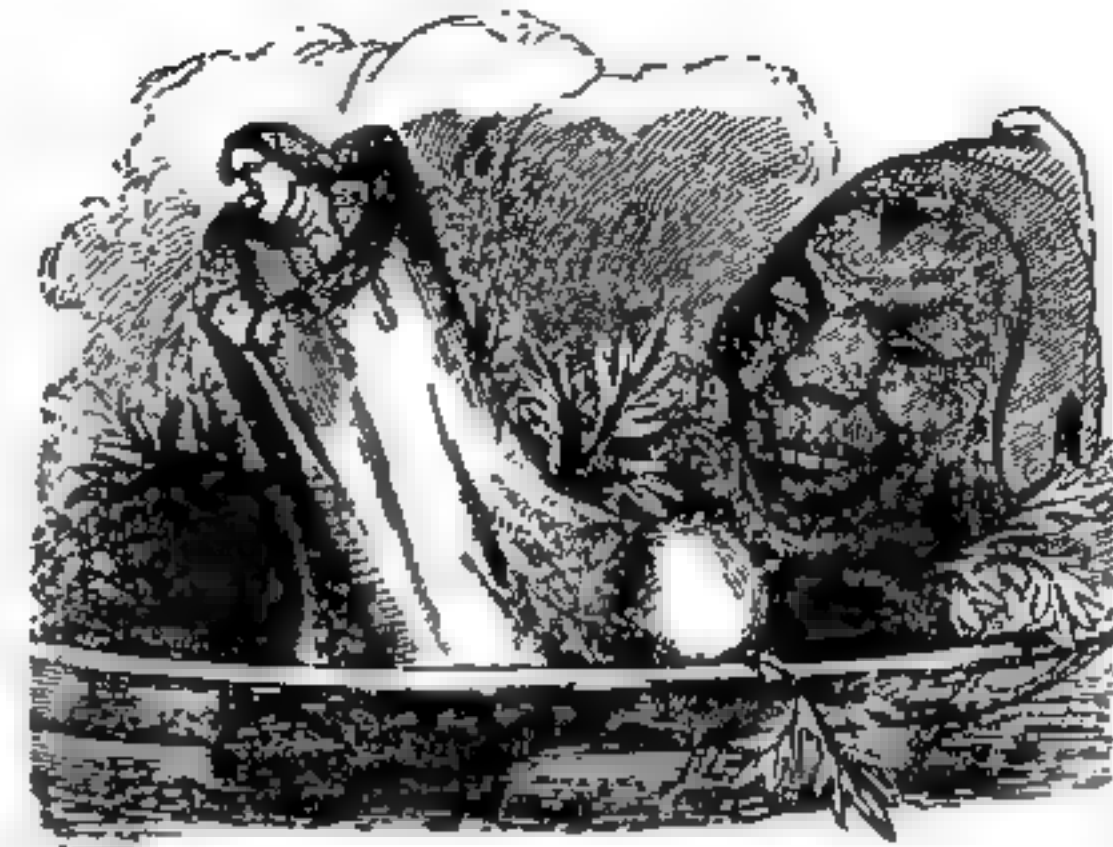
#### ٧ - القزم الخبيث

صفا لي الزمن ، ولم يُعكر على هذا الصفاء إلا قزم خبيث قد اختارته  
الملكة لمُنادمتها ، وهو أصغر قامة من كل مخلوق في هذه البلاد . وما  
رأى ذلك القزم الخبيث أن في الدنيا إنساناً أضال منه ، حتى تملكه الزهو  
والغرور والخيلاء ؛ فظل يعبت بي - كلما رآني - ولا يترك فرصة  
يلتقي فيها دون أن يتهم بي ، ويسخر مني ، حتى عكر على كل صفو .  
ولم أكن أجد وسيلة إلى الانتقام منه إلا أن أدعوه بقلب « الشقيق » !  
وما أنس لا أنس يوماً مشئوماً مر بي مع هذا القزم الخبيث ونحن  
تغدي . ولم أكن أفكر في شيء حينئذ ، فرأى ذلك القزم أن الفرصة  
ساحية للعبث بي ؛ فأمسكني من وسطى ، ورفض يده ، ثم ألقى بي في صحفة  
مملوءة كتباً ، وفر هارباً ؛ فزقت في اللبن إلى أذني ، ولولا أنني أُخين  
السباحة لفرقت فيها وكنت من الهالكين . وكانت الحاضنة الصغيرة  
حينئذ في آخر القاعة - لحسن خطي - فأسرعت إلي وأخذتني من الفرق .  
وما علمت الملكة بهذا الحادث المفزع حتى ذهلت ، وامتلات قسها



الأنبوب بضع دقائق - وأنا في أخرج مأزق - وخجلت من حقارتى ،  
فلم أشأ أن أصبح حتى لا أنبه من في البيت إلى مكانى المزرى .

وقد كان من حسن  
حظى أن الملوك  
لا يأكلون طعامهم  
وهو ساخن شديد  
الحرارة ؛ فلم تحترق  
ساقى .



وما فطن الحاضرون

إلى مكانى حتى أغرقوا في الضحك ، ثم أخرجونى من أنبوب تلك  
العظمة دون أن يمسنى سوء . وقد هموا بمعاقبه ذلك القزم على  
إساءته ؛ فتشفعت فيه - إبقاء عليه ، واستشفاء لنفسه - حتى عفا عنه .

## ٩ - مكافحة الحشرات

وكانت الملكة - فى كثير من الأحيان - تهزأ بى ، وتضحك من

قالى ، وتسخر من جبنى ، وكثيراً ما سألتى متعجبة :

« ترى هل يماثلك أبناء جلدتك فى خوفك وجبنك ؟ وهل  
ينزعجون من طنين الذباب ، ولذعائهِ الخفيفة كما تنزعج أنت ؟ »

ولا أكنتم  
القارى أن ذباب هذه  
البلاد ما كان يدعى  
لحظة فى راحة  
واطمئنان . فهو  
- ليوه حظى -

فى حجم القبرة فى  
بلادنا ، وكان يهاق  
على طامى ، ويقرعنى



طينته ، فلا يهنا لى طعام فى تلك البلاد . وربما لذعنى فى أننى لذعة  
موجعة . وكانت له رائحة كريهة ، فكنت أحس رغبة خوف  
وفزع كلما اقتربت منى تلك الحشرات المؤذية .

وكانما فهم ذلك القزم الخبيث خوفاً من تلك الحشرات ، فكان يحلوه أن يشتر كل فرصة سانحة ، ليخيفني بها ، ويضحك الأميرات مني ؛ فبملاً قبضة يده بجملته من الذباب ، ثم يطلقها على . ولم يكن لي من حيلة في دفع هذا البلاء إلا أن ألتجأ إلى مدينتي ، فأحارب ذلك الذباب الكبير ، وأقطع جسمة وأججته إرباباً !

وكانت الأميرات يعجبن بهذه اللبابة التي امتزت بها في صيد الحشرات . ولست أنسى ما حدث لي - ذا صباح - فقد وضعت الحاضنة علبتي على النافذة - وأنا في داخلها - لأستنشق الهواء النقي ، وما فتحت إحدى نافذتي وجلت إلى مائدي لا أكل فطوري - وكان قطعة من الفطير - حتى أقبلت البعوضة والزناير ، ودخلت حجرتي ، وملأت أنفاسها بطينيتها المفرغ ، وظلت تنهات على طامى وتنتهبه انتهاباً . وطار بعضها حول رأسي ، فتشجعت ، وقمت أطاردوها في الهواء ، قتلت منها أربعة ، وهربت بقيتها . فلما انتصرت عليها . أعلقت النافذة .

وقد كان البعوب في حخم الحمل ، وكان طول حخمه اللاسعة إصبعاً ، وقد احتفظت ببعضها ليكون عندي أثراً من ذكريات هذه البلاد .

#### الفصل الرابع

#### ١ - برُبدنجاج

لعل القاري قد اشتاق إلى تعرف هذه المملكة وأوصافها ، كما عرف من قبل - أوصاف إمبراطورية « ليليوت » . وليس في قدرتي أن أصف هذه المملكة الفسيحة الأزجاء ، المترامية الأطراف ، وصفاً شهاباً ؛ فلأجترى بوصفها وصفاً عاجلاً ، على قدر ما أعرفه منها . ولا أكنم القاري أنني أحييت هذه البلاد ، وفنت بها أشد الفتن .



تقع هذه المملكة في رقعة فسيحة من الكرة الأرضية ، طولها

ثلاثة آلاف ميل ، وعرضها ألفان وخمسمائة ميل . ولست أشك في أن علماء الجغرافية وأهليون إذ يُقررون - جازمين - أن ليس بين « اليابان » و « كلفورنيا » إلا بحر . ولقد طالما دار بخلي أن في تلك الأنحاء قارة



كبيرة . ولو ترك الأمر إلى لَأَوْصَبْتُ بِتَصْوِيبِ الْمُصَوِّرَاتِ الْجُغْرَاقِيَّةِ ،  
وتَلَا فِي هَذَا النِّقْصِ فِيهَا ، وَضَمَّ هَذِهِ الْبِلَادِ الْفَسِيحَةَ إِلَى الْأَقْصَامِ الشَّمَالِيَّةِ  
الغَرَبِيَّةِ فِي « أَمْرِيكا » . وَإِنِّي مُسْتَعِدٌّ لِمُعَاوَنَتِهِمْ فِي ذَلِكَ - إِذَا شَاءُوا -  
وَالْإِفْضَاءَ إِلَيْهِمْ بِمَا أَعْلَمُهُ عَنْ هَذِهِ الْبِلَادِ .

## ٢ - وَصْفُ « بَرُبْدِنْجَاغ »

ولست هذه الْمَمْلَكَةُ إِلَّا شِبْهَ جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ ، تَنْتَهِي شَمَالًا بِسِلْسِلَةِ  
جِبَالٍ يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهَا نَحْوَ ثَلَاثِينَ مِيلًا تَقْرِيبًا ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْهَا  
لَكثْرَةِ مَا فِي ذُرَاهَا مِنَ الْبَرَائِكِينَ . وَلَيْسَ فِي عُلَمَاءِ الْجُغْرَافِيَّةِ عَالِمٌ وَاحِدٌ  
يَعْرِفُ مَا وَرَاءَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ مِنَ السُّكَّانِ ، وَهَلْ هِيَ مَأْهُولَةٌ بِأَبْنَاءِ  
آدَمَ أَوْ غَيْرِ مَأْهُولَةٌ ؟

وليس في هذه الْمَمْلَكَةِ - عَلَى سَعَتِهَا - مَرَفَأٌ وَاحِدٌ تَرْسُو عَلَيْهِ  
السُّفُنُ . وَإِنَّكَ لَتَجِدُ - عِنْدَ مَصَابِ الْأَنْهَارِ كُلِّهَا - كَثِيرًا مِنَ الصُّخُورِ  
الْمُرْتَفِعَةِ الْوَعْرَةِ ، وَتَرَى الْبَحْرَ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ كَثِيرَ الْإِضْطِرَابِ ، حَتَّى  
لَيَسْتَعْذِرُ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ أَوْ آيَةٍ سَفِيهِةٍ الْإِفْطِرَابُ مِنْهَا . وَقَدْ كَانَ هَذَا سَبَبًا

فِي عُرْلَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَنِ الْعَالَمِ ، وَاتَّقِطَاعِ الْعُمَامِلَاتِ التُّجَارِيَّةِ بَيْنَ أَهْلِهَا  
وَبَيْنَ بَقِيَّةِ سُكَّانِ الدُّنْيَا .

## ٣ - سَمَكُ « بَرُبْدِنْجَاغ »

وَفِي هَذِهِ الْبِلَادِ أَنْهَارٌ كَبِيرَةٌ غَاصَّةٌ بِأَفْخَرِ أَنْوَاعِ السَّمَكِ . وَقَلَّمَا تَرَى  
أَحَدًا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ يَصِيدُ السَّمَكَ مِنَ الْمُحِيطِ ، لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ - فِي  
حَاجَتِهِ - عَنِ السَّمَكِ الَّذِي تَرَاهُ فِي بِلَادِنَا وَنَسْتَخْرِجُهُ مِنَ الْبَحَارِ ، وَهُوَ - فِي  
نَظَرِنَا - سَمَكٌ صَغِيرٌ جَدًّا لَا يُكَافِي مَا يُبَذَلُ فِي صَيْدِهِ مِنْ عَنَاءٍ .

وَكَأَنَّمَا خَصَّتِ الطَّبِيعَةُ سُكَّانَ هَذِهِ الْبِلَادِ بِكُلِّ مَا يُنَاسِبُ ضَخَامَتَهُمْ ؛  
لَقَدْ وَهَبَهُمُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَرْضًا فَسِيحَةً الْأَرْجَاءِ ، وَأَشْجَارًا سَامِقَةً  
الْعُلُوقُ بَالِغَةَ الْإِرْقَاعِ ، وَحَيَوَانَاتٍ غَايَةَ فِي ضَخَامَةِ الْأَجْسَامِ . فَكَانَ كُلُّ  
شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ يُنَاسِبُ - فِي ضَخَامَتِهِ وَكِبَرِ حَاجَتِهِ - سُكَّانَهَا .

وَقَدْ رَأَيْتُ - ذَاتَ يَوْمٍ - حُوتًا عَظِيمًا قَدْ اصْطَادَهُ أَحَدُ الصَّيَّادِينَ ،  
فَلَمْ يَسْتَطِعْ عِمْلَاقُ - مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ - أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى كَتِفَيْهِ لَضَخَامَتِهِ  
إِلَّا بِجُحْدٍ شَدِيدٍ . وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْحَيَّاتِ عَلَى مَائِدَةِ الْمَلِكِ .

وفي هذه المملكة إحدى وخمسون مدينة، ومائة ضاحية تكتنفها  
الأسوار، وعدد لا يحصى من القرى الصغيرة والمحلات، وكلها  
أهلة بالشكان.

### ٤ - قصبة « بربدنجاج »

وليس في قدرتي أن أصف بلاد هذه المملكة كلها، فليقتصر القارئ  
منى بوصف العاصمة التي أقمت فيها رذحا من الزمن.

يخترق هذه المدينة نهج كبير فيقسمها قسمين متساويين قريبا. وبها  
ثمانون ألف منزل، ولا يقل عدد سكانها عن ستمائة ألف نسمة. وهي  
أطول من « إنجلترا » بنحو أربعة وخمسين ألف مرة، وعرضها أفصح من  
عرض « إنجلترا » بنحو خمسة وأربعين ألف مرة. وقد عرفت ذلك من  
المصورة الملكية لهذه البلاد، وطولها مائة قدم. وقد وضعها العلماء  
إجابة لرغبات الملك.

وقد بسطت على الأرض لأدريسها.

أما قصر الملك، فهو على شيء قليل من النظام، يتألف من عدد

أبنية متقاربة، وفيه نحو سبعة آلاف قبو، ويبلغ ارتفاع أكبر الحجير  
فيه مائتين وأربعين قدما.

### ٥ - في شوارع « بربدنجاج »

وقد أعدوا لي عربة لا تنزله - مع الحاضنة - في شوارع المدينة  
وتياديينها، وأزور فنادقها وحدائقها، وكانت هذه العربة أشبه بحجرة  
كبيرة مربعة الشكل.

وإني لأذكر أن العربة قد وقفت بنا - ذات يوم - عند مكان أحد  
التجار، فانتهر المستجدون هذه الفرصة، وأقبلوا إلى باب العربة يتكفنون؛  
فرايت أمامي جمهرة من المرضى والعجزة، وذوي العاهات، وهم مشوهو  
الخلق، وعلى أجسادهم كومات من القاذورات، وقد تقيحت جروحهم،  
وسرت فيها جراثيم الأمراض الفتاكة. وما أنس لا أنس - ما حيت -  
تلك المناظر المرعبة المفروعة التي رأيتها في ذلك اليوم. وللقارئ أن يتخيل  
شعوري - حينئذ - وأن يحكم بنفسه على الأثر السيئ الذي تركته في نفسي  
رؤية هؤلاء المشوهين، ولعله يعطيني من الإفاضة في أوصافهم البشعة.



بَشَرَةَ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْفَضَّةِ الرَّقِيقَةِ : خَشْنَةً جَامِدَةً ، كَثِيرَةَ التَّجَاعِيدِ ، وَاسِعَةَ  
الثُّقُوبِ ، لَيْسَ فِيهَا مَا كُنْتَ تَرَاهُ مِنْ جَمَالٍ وَطَرَاوَةٍ . وَهَذَا هُوَ سِرُّ مَا رَأَيْتَهُ فِي  
هَؤُلَاءِ الْعَمَالِقَةِ مِنْ تَنَافُرٍ وَتَشْوِيهِ . وَلَقَدْ صَدَّقَ الْفَيْلَسُوفُ الْقَدِيمُ حِينَ قَالَ :  
« لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مَخْلُوقٌ دَمِيمٌ ، فَإِنْ كُلُّ مَا أَخْرَجَتْهُ يَدُ ذَلِكَ الصَّانِعِ الْعَظِيمِ  
الَّذِي أَبْدَعَ الْكَوْنَ ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، إِنَّمَا هُوَ جَمِيلٌ » ١

#### ٧ - فِي الزُّورِ وَالصَّغِيرِ

وَكَانَتْ الْمَلِكَةُ - كَمَا قُلْتُ - تَأَنَسُّ إِلَى حَدِيثِي ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ الْمَزِيدَ ،  
وَتَتَوَخَّى تَسْلِيَتِي وَإِيْهَاجِي كُلَّمَا وَجَدْتَنِي مُفَكِّرًا مَهْمُومًا . وَكُنْتُ كَثِيرًا  
مَا أَقْصُرُ عَلَيْهَا أَنْبَاءَ أَسْفَارِي وَرِحْلَاتِي فِي الْبَحَارِ . فَسَأَلَتْنِي ذَاتَ يَوْمٍ :  
« أَفِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَسْتَقِلَّ زُورِقًا ، وَأَنْ تَجْدِفَ ، فَلَا يُصِيبَكَ ضَرَرٌ ؟  
أَوْ لَا تَرَى فِي مِثْلِ هَذَا التَّمَرِّينِ سُلُوبَ لَهْمُومِكَ وَأَحْزَانِكَ ، وَخَلَاصًا مِنْ  
شُجُونِكَ وَأَفْكَارِكَ ، وَثَقْوِيَّةَ لَجْنِمِكَ ، وَتَوْفِيرًا لِصِحَّتِكَ ؟ »

قُلْتُ لَهَا :

« إِنِّي جَدُّ خَيْرٍ بِالْمِلَاحَةِ ؛ فَقَدْ كَانَتْ مِهْنَتِي الَّتِي تَخَصَّصْتُ لَهَا أَنْ

#### ٦ - الْحُسْنُ وَالْقَبْحُ

وَلَقَدْ مَرَّتْ بِخَاطِرِي - فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِي فِي هَذِهِ الْبِلَادِ - خَوَاطِرُ فِلَسَافِيَّةٍ  
أَفْضَى بِهَا إِلَى الْقَارِيءِ ، لَعَلَّ فِيهَا شَيْئًا مِنَ الْفَائِدَةِ ، وَدَرَسًا نَافِعًا لِمَنْ يُرِيدُونَ  
أَنْ يَتَعَرَّفُوا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ ، وَيَتَنَقَّلُوا فِي لُبَابِهَا وَصَمِيمِهَا ، دُونَ أَنْ تَخْدَعَهُمْ  
ظَوَاهِرُهَا الْخَلَّابَةُ . فَقَدْ أَتَاكَتْ لِي الْفُرْصَةُ أَنْ أَرَى كَثِيرًا مِنْ رِجَالِ هَذِهِ  
الْمَدِينَةِ وَنِسَائِهَا ، وَلَاخِظْتُ أَنْ أَجْهَازَ أَكْثَرِ مَنْ رَأَيْتُ غَيْرَ مُتَنَبِّهَةٍ  
وَلَا مُتَنَاسِبَةٍ . وَقَدْ عَرَفْتُ سِرَّ هَذَا التَّنَافُرِ ؛ فَإِنَّ الْعُيُوبَ إِذَا صَغُرَتْ قَلَّمَا  
يَرَاهَا الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا كَانَ وَاسِعَ الْخَبَرَةِ ، دَقِيقَ الْمُلَاحَظَةِ . فَإِنْ كُبُرَتْ  
هَذِهِ الْعُيُوبُ وَضُوعِفَتْ ، أَذْرَكَهَا الْإِنْسَانُ بِأَذَى نَظَرٍ ، وَأَبْسَرَ مُلَاحَظَةٍ .  
فَهَذَا الْوَجْهُ الْحَسَنُ - الَّذِي أَعْجَبَكَ جَمَالُهُ ، وَفَتَنَتْكَ رَوْعَتُهُ ، وَالَّذِي  
انْتَهَضْتَ أَجْزَاؤُهُ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ الْعَيْنَانِ وَالْأَنْفُ وَالْفَمُ وَالذَّقْنُ وَالْوُجْهَتَانِ  
وَالْجَبِينُ - يَرُوعُكَ مَنَظَرُهُ ، فَتَصِفُهُ بِشَيْءٍ أَوْصَافِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ . فَإِذَا  
نَظَرْتَ إِلَيْهِ وَرَاءَ مِجْهَرٍ ، ظَهَرَ لَكَ كُلُّ مَا فِيهِ مِنْ عُيُوبٍ وَتَشْوِيهِ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ  
الْمَجْرَدَةُ . وَثَمَّةٌ يَنْقَلِبُ إِعْجَابُكَ بِهِ وَافْتِنَانُكَ ، تَهَرُّزًا وَاسْتِيشَاعًا ؛ إِذَا تَرَى

أَكُونُ طَيِّبًا لِلشُّعْنِ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَضْطَرُّنِي - فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ -  
أَنْ أَعْمَلَ مَعَ السَّلَاحِينَ . وَلَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْتَقِلَّ زَوْرَقًا فِي هَذِهِ  
الْبِلَادِ ؛ فَإِنْ أَصْفَرَ زَوْرَقٍ عِنْدَكُمْ كَأَكْبَرِ سَفِينَةٍ حَرْبِيَّةٍ عِنْدَنَا ! عَلَى أَنْتَنِي  
إِذَا ظَفِرْتُ بِزَوْرَقٍ صَغِيرٍ يُنَاسِبُ حَاجَتِي ، فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَجْدِفَ  
مُدَّةً طَوِيلَةً فِي عُجَابِ أَنْهَارِكُمُ الْوَاسِعَةِ ؛ فَإِنَّ قُوَايَ مَحْدُودَةٌ ، مَنَاسِبَةٌ  
سَّالَةً جِسِي .

فَقَالَتْ لِي جَلَالَتُهَا :

« أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمُرَّ النَّجَّارَ - إِذَا شِئْتَ - أَنْ يَصْنَعَ لَكَ زَوْرَقًا صَغِيرًا  
يُنَاسِبُ حَاجَتَكَ ، كَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَهَيِّئَ لَكَ مَكَانًا صَالِحًا لِتَسِيرِ هَذَا  
الزَّوْرَقِ الصَّغِيرِ . »

فَشَكَرْتُ لَهَا هَذِهِ الْمَنَاقِبَ الَّتِي اخْتَصَّتْنِي بِهَا . وَلَمْ يَمُضْ عَلَى ذَلِكَ سِتَّةُ  
أَيَّامٍ حَتَّى أَتَمَّ النَّجَّارُ صُنْعَ سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ كَامِلَةِ الْمُعَدَّاتِ . تَحْمِلُ ثَمَانِيَةَ مِائَةِ  
أَمْثَالِي . فَلَمَّا أَتَمَّهَا أَمَرْتُهُ الْمَلِكَةُ بِعَمَلِ حَوْضٍ مِنَ الْخَشَبِ طَوْلُهُ ثَلَاثُمِائَةِ  
قَدَمٍ ، وَعَرْضُهُ خَمْسُونَ قَدَمًا ، وَعُمُقُهُ ثَمَانِيَةَ أَقْدَامٍ ، وَأَنْ يُطْلِيَهُ بِالْقَارِ - سِدَّ  
الْإِنْتِهَاءِ مِنْ صُنْعِهِ - حَتَّى لَا يَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ الْمَاءُ ، ثُمَّ يَضَعُ ذَلِكَ الْحَوْضَ فِي

يَمٍّ خَارِجِيٍّ مِنْ أَنْهَاءِ الْقَصْرِ . وَقَدْ أَوْصَتْهُ بِعَمَلِ بِالْوَعَةِ فِي قَاعِ الْحَوْضِ  
لِتَضْرِبَ الْمَاءُ وَتَجْدِيدِهِ ، فِي الْفَيْئَةِ بَعْدَ الْفَيْئَةِ . فَلَمَّا أَتَمَّ صُنْعَ الْحَوْضِ ،  
مَلَأَهُ اثْنَانِ مِنَ الْخَدَمِ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ .



وَقَدْ وَقَّتِ الْمَلِكَةُ  
وَوَصِفَاتُهَا بِرُقُبْنَ  
رُكُوبِي ، وَأَعْجِبَنِي  
بِمَهَارَتِي وَخِبْرَتِي  
لِإِنْجَابِي شَدِيدًا .

وَكُنْتُ أَنْشُرُ  
الشَّرَاعَ أَحْيَانًا ، وَأَقُودُ

الزَّوْرَقَ حَتَّى يَقْرُبَ مِنْهُ ، فَيُعْمِلُنَ الْمَرَاوِحَ ، فَيَكُونُ هَوَاؤُهَا لِدَفْعِ الشَّرَاعِ  
وَتَسِيرِ الزَّوْرَقِ . فَإِذَا تَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ جَاءَ الْخَدَمُ فَتَفَخَّخُوا بِأَفْوَاهِهِمْ ، فَيَنْطَلِقُ  
الزَّوْرَقُ فِي الْحَوْضِ . وَكُنْتُ أَظْهَرُ أَمَامَهُمْ - فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَيَّامِ -  
مَهَارَتِي فِي تَسِيرِ الزَّوْرَقِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ إِلَى الْأَيْسَرِ - كَمَا يَخْلُو لِي -  
وَكُنُّ يَعْجَبُونَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ .



فَإِذَا انْتَهَيْتُ مِنْ ذَلِكَ ، رَفَعْتُ الْحَاضِنَةَ زَوْرَقِي بِيَدَيَّ ، وَعَلَّقْتُهُ بِمِشْمارٍ  
فِي حَائِطِ الْقَصْرِ لِيَجِفَّ .

### ٨ - عَلَى شَفَا الْهَلَاكِ

وَقَدْ وَقَعَ لِي - ذَاتَ يَوْمٍ - حَادِثٌ مُرَوِّعٌ كَادَ يَقْضِي عَلَى حَيَاتِي . قَدْ  
وَضَعَ أَحَدُ الْخُدَمِ الزَّوْرَقَ فِي الْحَوْضِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِالذَّهَابِ إِلَيْهِ  
حَتَّى جَاءَتْ سَيِّدَةُ فَرْعَتَيَّ بِيَدَيْهَا لَتَضَعَنِي فِي السَّفِينَةِ ؛ فَانْزَلْتُ مِنْ بَيْنِ  
أَصَابِعِهَا ، وَكِدْتُ أَهْوِي مِنْ هَذَا الْإِرْتِقَاعِ الشَّامِخِ الَّذِي لَا يَقْلُ عَنْ  
أَرْبَعِينَ قَدَمًا ، وَلَكِنْ كَتَبَ لِي اللَّهُ الْإِلَامَةَ مِنْ هَذَا الْهَلَاكِ الْمُحَقَّقِ ،  
فَعَلَقْتُ ثِيَابِي - لِحُسْنِ حَظِّي - بِـ « دَبُّوسٍ » كَبِيرٍ كَانَ فِي ثِيَابِي مُحَاذِيًا  
صَدْرَهَا ، فَلَبِثْتُ مُعَلَّقًا فِي الْهَوَاءِ ، وَأَسْرَعَتِ الْحَاضِنَةُ إِلَيَّ ، فَأَقْدَتْنِي  
مِمَّا أَنَا فِيهِ .

### ٩ - ضِفْدَعٌ « بُرْبُذَنْجَا »

وَوَقَّعْتُ لِي حَادِثَةً أُخْرَى مُفْرَعَةً لَا أَنْسَاهَا مَا حَيِّتُ : قَدْ أَهْمَلَ أَحَدُ

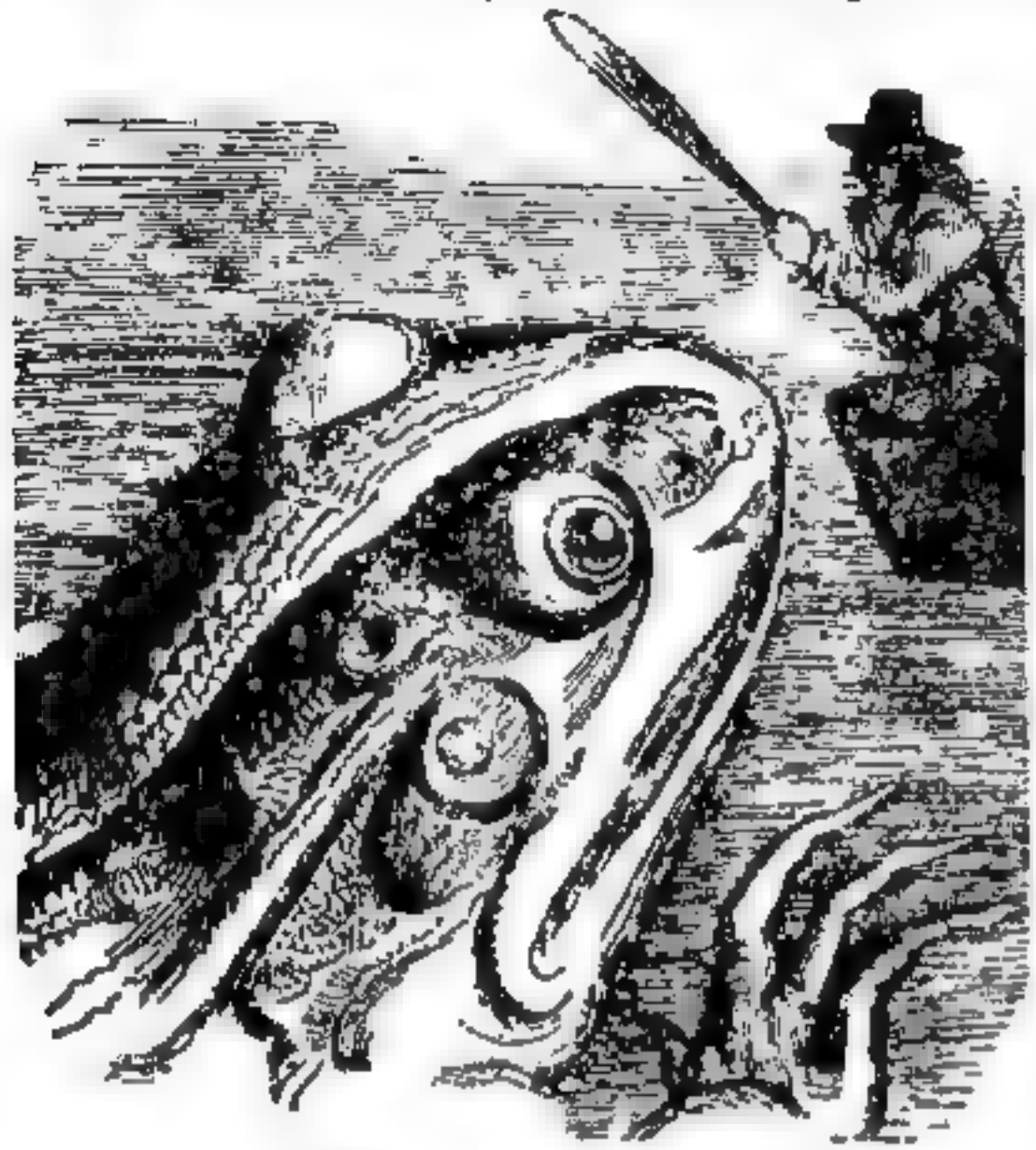
الْخَادِمَيْنِ الْمَنُوطَيْنِ بِمَا مَلَأَ الْحَوْضَ ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمَا أَنْ يُجَدِّدَا مَاءَهُ مَرَّةً  
فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ؛ فَفَقَرَ

ضِفْدَعٌ كَبِيرٌ إِلَى الْحَوْضِ  
وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمَا ، وَاخْتَفَى  
فِي الْمَاءِ حَتَّى رَأَى زَوْرَقِي ،  
فَقَفَزَ عَلَى أَحَدِ جَانِبَيْهِ ،  
فَأَمَالَهُ حَتَّى كَادَ يُفْرِقُهُ .  
فَجَلَسْتُ فِي الْجَانِبِ الْآخَرَ  
مِنَ الزَّوْرَقِ ؛ لِأَحُولَ

يَوْمَ إَغْرَاقِهِ ، وَظَلَلْتُ أَضْرِبُ ذَلِكَ الضِفْدَعَ بِمِجْدَانِي - بِقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ -  
حَتَّى قَفَزَ إِلَى الْمَاءِ ثَانِيَةً . وَقَدْ تَرَكَ هَذَا الْحَادِثُ فِي نَفْسِي أَثَرًا لَا يُمَحَى ، وَلَا  
أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْسَاهُ طَوْلَ عُثْرِي !

### ١٠ - قِرْدٌ « بُرْبُذَنْجَا »

وَهَيَّاتَ أَنْ أَنْسَى أَشْأَمَ حَادِثٍ وَقَعَ لِي فِي هَذِهِ الْبِلَادِ : قَدْ أَغْلَقْتُ عَلَى



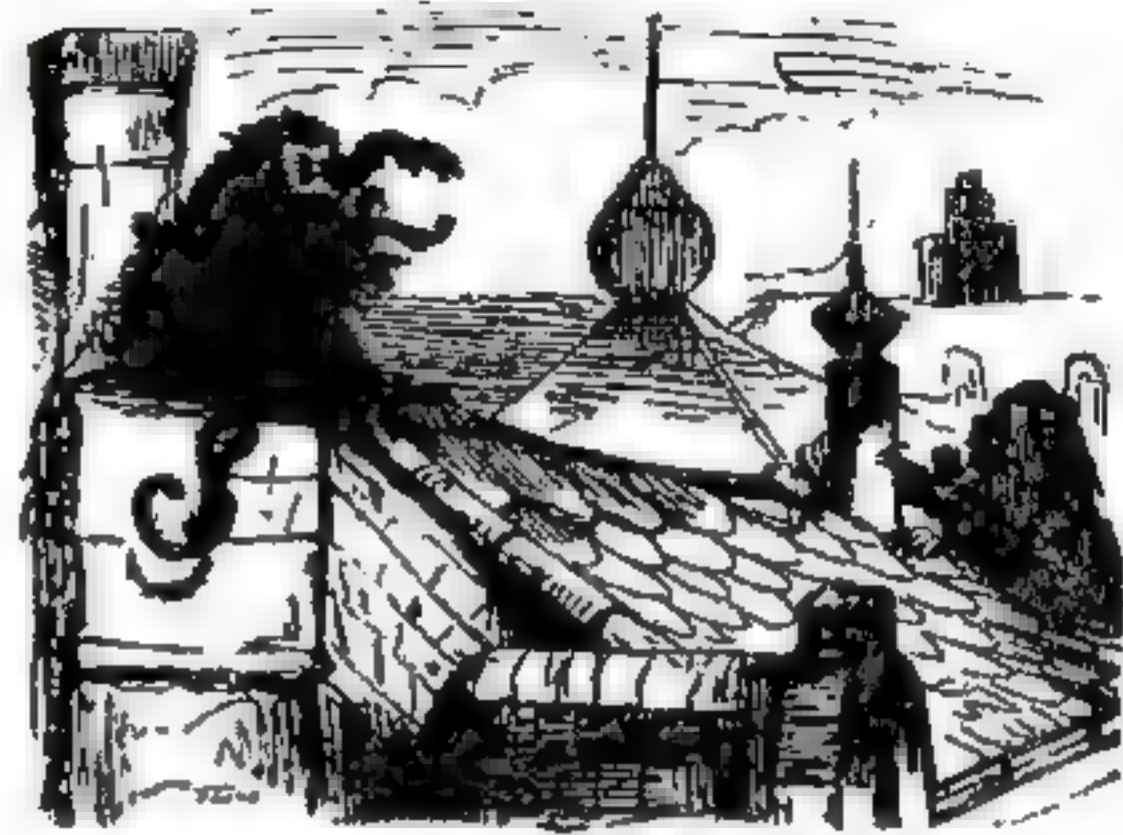
العاضنة باب الحجرة - ذات يوم - وخرجت لبعض شأنها، وكان اليوم شديد الحر، فتحت نافذة علتي المطلة على بهو القصر. وإني لفارق في تفكيري وأحزاني على مقربة من المضدة، إذ سمعت صوتًا غريبًا، وأحسنت شيئًا يدخل البهو - من نافذة المفتوحة - ثم يقفز فيه، فامتلا قلبي رغبًا، ولكنني تشجعت قليلًا، ونظرت من نافذة علتي وأنا جالس في مكاني، فرأيت حيوانًا يذئ من العلبة وينظر إلي، وقد بدت عليه أمارات المريح والدهشة؛ فانزوت في أقصى ركن في الحجرة، وقد فاتني - لسوء حظي - أن أختبئ تحت سريري، وقد كان ذلك ميسورًا لي - لو فطنت إليه - ولكنه القضاء الذي لا مرد لحكمه، ولا حيلة للإنسان في دفعه. وتكأن ذلك الحيوان - وقد علمت بعد قليل أنه قرود - من إدخال يده من نافذة العلبة، حيث أمسك بيدل ثوبي - وهو مصنوع من الجوخ الغليظ المتين - وحذبت بقوة إلى الخارج، ثم حملني في كفه اليمنى - كما تحيل الأم رضيعها لترنسته - فذكرني ذلك بقرود خيش رآته في بلادى يصنع مثل هذا مع قط صغير. وما هممت بمقاومته حتى ضمني ضمة عنقه كادت تزهق روعي؛ فرأيت من العزامة

والكياسة أن أذعن للقدر، وأكف عن المقاومة. وكأنا توهمني قرودًا صغيرًا، لأنه كان يداعبني ويربت وجهي بيده مترققًا مسرورًا.

وأحسن القرود خلق أقدم قريبي، وسمع صرير المفتاح، فكف عن مداعبتي فجأة، وقفز مسرعًا - من النافذة التي جاء منها - إلى الميزاب، وهو يسير على رجلين، ويد واحدة، قد أمسكني باليد الأخرى، وما زال يقفز حتى وصل إلى سطح البيت المجاور لنا. وسمعت في هذه اللحظة صراخًا هائلًا من العاضنة التي أقم قلبها الفزع، واستولى عليها اليأس حتى كاد يفقد رُشدًا. وأسرع خدام القصر يحاولون إنقاذي، فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا. وجاء بعضهم بالسلاسل، واجتمع كثير من الناس ليروا هذا المنظر العجيب. وقد جلس القرود على ذروة السطح، وحلني في إحدى كفيه - كما يحيل الطفل دُميته - وظل يطعنني بكفه الأخرى، ويرجح قطع اللحم - التي سرقها - في فمي زجاجًا، وكلما امتنعت عن الأكل لطمني؛ فأذعنت له مرغمًا. وقد أضحك القرود - بهذا العمل - كثيرًا من السفهاء الذين وقفوا يشهدون ذلك المنظر، فلم يبالوا من الضحك - ولهم الحق - فقد كان المنظر مسليًا مضحكًا حقًا، إلا في



نظري أنا وحدى ؛ إذ كنتُ بطلَ هذه المأساة المُنْجِعة ، وكنتُ عرضةً  
للهلاكِ بينَ لحظةٍ وأخرى !



وهمَّ بعضُ النظارةِ  
بِقَذْفِهِ بِالْحِجَارَةِ ،  
لِيُرْغِمُوهُ عَلَى التَّزَوُّلِ مِنْ  
سَطْحِ الْقَصْرِ إِلَى الْأَرْضِ ،  
وَلَكِنَّهُمْ عَدَلُوا عَنْ ذَلِكَ  
خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَنِي حَجَرٌ

مِنْ أَحْجَارِهِمْ ، فَيُحْطَمَ رَأْسِي تَحْطِيمًا . وما ارتقوا السُّلَالِمَ ، حتى  
فَزِعَ الْقَرْدُ وَفَرَّ هَارِبًا مِنْ مَكَانِهِ ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَنِي أَهْوَى مِنْ ذَلِكَ الْمَلُوءِ  
الْهَائِلِ . وقد كنتُ - لَا شَكَّ - هَالِكًا ، لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِي وَعِنَايَتُهُ ؛ فَقَدْ  
سَقَطْتُ عَلَى أَحَدِ مَيَازِيبِ الْقَصْرِ ، فَأَسْرَعَ غُلَامٌ نَشِيطٌ إِلَى مَكَانِي ، فَأَقْدَنِي  
مِنَ السُّقُوطِ . ثُمَّ وَضَعَنِي فِي جَنْبِهِ ، وَعَادَ - مِنْ حَيْثُ أَتَى - فَأَسْلَمَنِي إِلَى  
الْحَاضِنَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَقَدْ فَرِحَتْ بِسَلَامَتِي مِنَ الْهَلَاكِ فَرَحًا لَا يُوصَفُ .

...

وَلَا أَكْتُمُ الْقَارِئَ أَنَّنِي كُنْتُ عَلَى وَشَكِّ الْإِخْتِيارِ بِتِلْكَ الْأَقْدَارِ الَّتِي  
كَانَ يَزُجُّ بِهَا الْقَرْدُ فِي فَيْي . وقد أدركتِ الحَاضِنَةُ حَقِيقَةَ أَمْرِي ، فَبَذَلَتْ كُلَّ  
جُهِدِهَا حَتَّى تَقَايَأْتُ ؛ فَخَفَّ مَا بِي مِنَ الْأَلَمِ . وَكَانَ الضَّعْفُ قَدْ بَلَغَ بِي كُلَّ  
مَبْلَغٍ ، وَكَادَتْ أَضْلَاعِي تَتَكَسَّرُ مِنْ ضَمَّةِ ذَلِكَ الْقَرْدِ الْخَبِيثِ . وَبَقِيتُ  
مَطْرِيحَ الْفِرَاشِ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا كَامِلَةً ، وَكَانَ الْمَلِكُ وَحَاشِيَتُهُ يَبْعَثُونَ إِلَيَّ  
فِي كُلِّ يَوْمٍ بِتَحِيَّاتِهِمْ مُسْتَفْسِرِينَ عَنْ ضِعَّتِي . وَقَدْ شَرَّفَتْنِي الْمَلِكَةُ  
بِزِيَارَاتٍ عِدَّةٍ إِبَّانَ مَرَضِي . ثُمَّ صَدَرَ الْأَمْرُ بِإِهْلَاكِ ذَلِكَ الْقَرْدِ ، وَإِبْعَادِ  
جَمِيعِ الْقِرَدَةِ ، وَأَلَّا يُرَخَّصَ لِأَحَدٍ مِنَ الْقَاطِنِينَ فِي الشَّوَارِعِ الْمُجَاوِرَةِ  
لِلْقَصْرِ بِاقْتِنَادِ قَرْدٍ فِي بَيْتِهِ .

## ١١ - فِي حَضْرَةِ الْمَلِكِ

وَمَا تَمَانَلْتُ مِنَ الْمَرَضِ ، وَدَخَلْتُ فِي دَوْرِ النِّقَةِ ، حَتَّى ذَهَبْتُ إِلَى  
جَلَالَةِ الْمَلِكِ لِأَشْكُرَ لَهُ تَفَضُّلَهُ بِالسُّؤَالِ عَنِّي ، وَالْعِنَايَةَ بِأَمْرِي . وَلَمَّا  
مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ حَيَّانٍ مَبْتَسِمًا ، وَظَلَّ يُدَاعِبُنِي . وَقَدْ أَغْرَبَ فِي الضَّحِكِ  
جِئْنَ تَصَوُّرَ ذَلِكَ الْحَادِثِ الْمُفْرَعِ الَّذِي وَقَعَ لِي ، وَسَأَلَنِي مُسْتَفْسِرًا :

« خَبَّرَنِي كَيْفَ كَانَ وَقَعُ هَذَا الْحَادِثِ فِي قَسَبِكَ ؟ وَأَيُّ أَثَرٍ تَرَكَهُ ؟ وَمَاذَا أَحْسَنْتَ وَأَنْتَ بَيْنَ يَدَيِ الْقَرْدِ ؟ وَهَلِ اسْتَطَبْتَ مَا قَدَّمَهُ لَكَ مِنْ لَحْمٍ شَهِيٍّ ؟ وَهَلِ زَادَ الْهَوَاءُ النَّقِيَّ - الَّذِي اسْتَنْشَقْتَهُ فَوْقَ سَطْحِ الْقَصْرِ - فِي شَهِيَّتِكَ لِذَلِكَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ ؟ وَأَيُّ أَثَرٍ كَانَ يَدْرِكُهُ مِثْلُ هَذَا الْحَادِثِ فِي قَسَبِكَ لَوْ وَقَعَ لَكَ فِي بَلَدِكَ ؟ »

قُلْتُ لِجَلَالَتِهِ :

« لَيْسَ فِي أَوْرُبَةِ مِنَ الْقِرَدَةِ إِلَّا مَا نَجَلْبُهُ مِنَ الْبِلَادِ الْأُخْرَى . عَلَى أَنَّ الْقِرَدَةَ - الَّتِي تَرَاهَا فِي بِلَادِنَا - غَايَةُ فِي الصَّغَرِ ، فَلَا يَخْشَى أَذَاهَا أَحَدٌ .

أَمَّا هَذَا الْقَرْدُ الَّذِي اخْتَطَفَنِي - وَهُوَ فِي مِثْلِ مَخَامَةِ الْفِيلَةِ عِنْدَنَا - فَهُوَ مَرْهُوبُ الْأَذَى ، مَخْشَى الضَّرَرِ . عَلَى أَنَّي أَوْ كَدُّ إِسْوَالِي أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ أَذْهَلَنِي عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ، فَأَنْسَانِي أَنَّ أُجَرَّدَ حُسَامِي لِمَعْبَاوَاتِهِ وَدَفَعُ أَذَاهُ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَضَرَبْتُ يَدَهُ بِالْحُسَامِ حِينَ أَدْخَلَهَا فِي حُجْرَتِي ؛ إِذَنْ لَجَرَحْتُهَا جُرْحًا يَلِيْمًا ، يَدْفَعُ عَنِّي أَذِيَّتَهُ ، وَيَرْجِعُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَى ! »

وَبَدَّ تَمَلُّكُنِي الْحَمَاسَةَ وَالْقُرُورَ - حِينَئِذٍ - فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى

مَنْبَعِي سَيْفِي - شَأْنُ الْفَارِسِ الشُّجَاعِ الْمُخْتَالِ - وَكَانَتْ نَبْرَاتُ سَوَاتِي تَدُلُّ عَلَى الزَّهْوِ ، وَقَدْ تَمَلَّكُنِي شُعُورُ الرَّجُلِ النَّبِيلِ الْغَوْرِ عَلَى شَرْفِهِ !

• • •

وَرَأَى الْعَمَلِقَةُ أَمَامَهُمْ حَشْرَةً ضَخْمَةً تُدَافِعُ عَنْ كِرَامَتِهَا وَشَرَفِهَا - مُبَاهِيَةً مَزْهُوَةً - فَلَمْ يَتَعَالَكُوا مِنَ الضَّحْكَ . وَلَمْ يَحُلْ جَلَالُ مَجْلِسِ الصِّلِكَ وَوَقَارُهُ دُونَ أَنْ يَسْخَرُوا مِنْ غُرُورِي وَخُيَلَاتِي !

فَأَذْرَكْتُ خَطِيئِي - حِينَئِذٍ - وَالتَّمَسْتُ لِهَوْلَاءِ الْعَمَلِقَةِ الْعُذْرَ فِي سُخْرِ يَتِهِمْ مِنِّي ، وَذَكَرْتُ أَنَّ مِنَ الْبَلَاءَةِ أَنْ أَذْكَرَ الشُّجَاعَةَ وَالْقُوَّةَ أَمَامَ قَوْمٍ فِي مِثْلِ قُوَّةِ الْمَرْدَةِ وَطُولِ قَامَاتِهِمْ . وَتَمَثَّلْتُ غُرُورَ بَعْضِ الصَّعَالِيكِ الَّذِينَ طَالَمَا سَخِرْتُ - فِي بِلَادِنَا - مِنْ إِدْعَائِهِمْ وَتَبَجُّحِهِمْ أَمَامَ سَرَاةِ الْبِلَادِ وَحُكَّامِهَا ، وَكَيْفَ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِالْمَجْدِ وَالشَّرَفِ ، فَلَا يَلْقَوْنَ إِلَّا الْإِزْدِرَاءَ وَالتَّخْفِيرَ !

١٢ - بَيْنَ الْحَاضِرَةِ وَ« جَلَقَر »

وَلَمْ أَنْسَ هَذَا الدَّرْسَ - مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ - فَأَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ



أُجَارِيَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ ، وَأَقْصَى عَلَى الْحَاشِيَةِ - فِي كُلِّ يَوْمٍ - قِصَّةٌ مُضْحِكَةٌ طَرِيفَةٌ ، حَتَّى أَصْبَحْتُ حَيِّياً إِلَى كُلِّ نَفْسٍ .

وَكَانَتِ الْحَاضِنَةُ عَلَى حُبِّهَا إِيَّايَ - تَمِيلُنِي إِلَى مُدَاعَبَتِي ، فَتُسِرُّ إِلَى الْمَلِكَةِ بِمَا أَقْعُ فِيهِ مِنَ الْفَلَطِ ، لِتَشْتَرِكَ مَعِيَ فِي السَّرُورِ وَالِابْتِهَاجِ ، وَلِتَضْحَكَا مَعِي مَا شَاءَتَا أَنْ تَضْحَكَا .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِي - فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ - إِذْ نَزَلْتُ مِنَ الْعَرَبَةِ وَمَشَيْتُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَاضِنَةِ . وَإِنِّي لَا تَنْزُهُ إِذْ اعْتَرَضَنِي فِي طَرِيقِ رَوْثُ بَقَرَةٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَظْهَرَ مَهَارَتِي ؛ فَفَقَرْتُ - مِنْ قُوْرِي - وَلَكِنِّي سَقَطْتُ لِسُوءِ حَظِّي ، وَلَمْ أَخْرُجْ إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ . وَقَدْ تَلَوَّثْتُ ثِيَابِي ؛ وَحَاوَلَتِ الْحَاضِنَةُ وَالْخَدَمُ تَنْظِيفَهَا ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ . وَأَبَتِ الْحَاضِنَةُ الْحَقَّاءَ إِلَّا أَنْ تُذِيعَ نَبَأَ هَذَا الْحَادِثِ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ ! ...

### الفصل الخامس

#### ١ - مُنْطُ « جِلْقَر »

كَانَ مِنْ عَادَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَلِكِ عِنْدَ اسْتِيقَاضِهِ مِنَ النَّوْمِ فِي الصَّبَاحِ ، مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ . وَكَثِيراً مَا رَأَيْتُ الْحَلَّاقَ عِنْدَهُ وَهُوَ يَخْلُقُ لِحْيَتَهُ . وَأَذْكُرُ أَنَّنِي حِينَ رَأَيْتُهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى - وَالْحَلَّاقُ جَادٌّ فِي

خَلْقِ لِحْيَتِهِ - امْتَلَأَتْ نَفْسِي رُغْبًا وَهَلَعًا ؛ فَقَدْ كَانَ طَوْلُ الْمُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ضِعْفِ طَوْلِ الْمُنْجَلِ عِنْدَنَا . بَتَّ وَكَانَ مِنْ عَادَةٍ



بِجَلَالَتِهِ أَنْ يَخْلُقَ لِحْيَتَهُ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ ؛ عَلَى حَسَبِ تَقَالِيدِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَعَادَاتِهَا .

وقد طلبت من الحلاق - ذات مرة - أن يعطيني عدة شعرات من  
لحية الملك ، فلم يتردد في إجابتي إلى طلبي . فأخذت قطعة صغيرة من  
الخشب وتقببتها - يارم - عدة ثوب على مسافات متساوية منتظمة .  
ثم أدخلت - في تلك الثوب - ما أخذته من شعرات الملك بدقة  
وانتظام ، وتم لي صنع المشط الذي أردته . وكان المشط الذي أحضرته  
معي من بلادى قد انكسر ؛ فاستبدلت به هذا المشط المتين ، بعد أن  
عجزت عن الظفر بمشط صغير ، ويشت من الثور على عامل كفه  
يصنع لي المشط الذي يلائمني .

## ٢ - كرسى جلفر .

وما إن ظفرت بتحقيق هذه الرغبة ، حتى سنع لي خاطر آخر ، فرجوت  
إحدى خادِمات الملكة أن تلتقط لي ما يسقط من رأسها من شعرات  
- في أثناء امتشاطها - فلبت طلبي ، وأحضرت لي عددا كبيرا من شعرات  
الملكة . فأعطيتها للنحار ليصنع لي كرسى يناسب ضالة جسي ،  
وأرشدته إلى طريقة صنعها ، وأوصيته أن يكونا في حجم الكرسيين اللذين

صنعهما من قبل ، وأن يتقب الخشب عدة ثوب منتظمة . فلما أتمهما  
ملأت ثوبهما بشعرات الملكة ؛ فأصبح عندي مقعدان فاخران وفق  
ما أشتي وأريد . ثم أهديتهما إلى الملكة ؛ فقرحت بهما ووضعتهما  
في خزانتهما ، بعد أن شكرت لي أن أهديت إليها هاتين الطرقتين الثمينتين ؛  
وأذكر أنها طلبت إلي - ذات يوم - أن أجلس على أحدهما ،  
فاعتذرت لها قائلاً :

« لن تصل إلي الجُرأة وسوء الأدب إلى حد أن أجلس على هذه  
الشعرات المخترمة التي زينت - من قبل - رأس الملكة الجليل »  
وبعد أيام صنعت



من شعرها كيفاً  
جيداً طوله ذراعان ،  
وطرزته باسمها

بحروف من الذهب . ثم استأذنتها في إهدائه إلى الحاضنة ؛ فأذنت  
لي في ذلك ، وهي مسرورة بإخلاصي ، وحسن وفائي لهذه الحاضنة  
الوقية .



وكان أحدُ مدرّسي الموسيقى يتعهدُها ، ويُخصّصُ لتعليمها درّسين في كلِّ أسبوعٍ .

وقد عنّ لي أن أعزفَ لحناً موسيقياً أمامَ جلالتي الملكِ والملِكةِ ،

ولكنّ ذلك لم يكن

بالأمرِ اليسيرِ الهينِ ؛

قد كان طولُ كلِّ

دستَانٍ من الدساتينِ

ستينَ قدماً ، وعرضُه

قدماً ، وكنتُ

— إذا بسطتُ ذراعيَّ

كلَّ البسطِ —

لا أستطيعُ أن ألمسَ

أكثرَ من خمسةِ

دساتينَ ، وكنتُ

— إلى ذلك — لا أستطيعُ أن أحرّكَ الدستانَ بإصبعي ؛ لأنَّ إخراجَ النغمةِ

### ٣ — موسيقا العمالقة

وكان لملك « برُبدنجاج » شغفٌ شديدٌ بالموسيقا . وقد شهدتُ كثيراً من الحفلاتِ الموسيقيةِ التي أقامها . وكنتُ أشهدُ تلكَ الحفلاتِ — وأنا في عُلمتي — ولكنَّ موسيقاهم كانت تُزعجُني أشدَّ الإزعاجِ ، لأنَّ أصواتها شديدةُ الارتفاعِ .

ولم أكنُ أستطيعُ تمييزَ النغماتِ بينَ هذا الصخبِ — وهي على مقربةٍ من أذني — ولم أطقُ صبراً على سماعِ الطبولِ .

قد كنتُ أسمعُ لها دويّاً هائلاً مزعجاً ، ولم يكن في قدرتي أن أحيلَ أصواتَ أبواقهم المفرّعةِ . فاستأذنتُ الملكَ أن أكونَ في عُلمتي على مسافةٍ بعيدةٍ من الموسيقا ، فكنتُ أقفلُ على بابِ عُلمتي ونافذتُها . وأسديلاً أشتارها ، فيخفُ الصوتُ والضوضاءُ ، وبذلك يتسنى لي التمييزُ بينَ أنغامها المختلفةِ .

...

وكنتُ على شيءٍ من العِلْمِ بالموسيقا ؛ فقد تعلّمتُ — في حداثتي — الإيقاعَ على المعازِفِ . ورأيتُ في غرفةِ الحاضنةِ معزفاً تتلمذ العزفَ عليه ،

المُوسِيقِيَّةِ عَلَى هَذَا الدَّسْتَانِ الضَّخْمِ الْعَظِيمِ يُكَلِّفُنِي أَنْ أَضْرِبَ عَلَيْهِ  
بِجُمْعِ يَدَيَّ ضَرْبَةً شَدِيدَةً.

وَبَعْدَ فِكْرٍ طَوِيلٍ اهْتَدَيْتُ إِلَى طَرِيقَةٍ نَاجِحَةٍ ؛ فَأَحْضَرْتُ عَصَوَيْنِ  
— فِي مِثْلِ بَضَخَامَةِ عَصِيئَتِنَا الْمَعْتَادَةِ — ثُمَّ غَشَّيْتُ طَرَفَيْهِمَا بِجِلْدٍ فَارِسٍ ،  
حَتَّى يَتَسَنَّى لِي أَنْ أَعْرِفَ بِهِمَا عَلَى الدَّسَاتِينِ . وَدَعَوْتُ الْمَلِكَ وَالْمَلِكَةَ ، بَعْدَ  
أَنْ أَتَيْتُ بِمَقْعَدٍ طَوِيلٍ ؛ فَأَدْنَيْتُهُ مِنَ الدَّسَاتِينِ ، ثُمَّ وَقَعْتُ عَلَيْهِ ، وَظَلَلْتُ  
أَجْرِي — فِي رَشَاقَةٍ وَسُرْعَةٍ — عَلَى ذَلِكَ الْمَقْعَدِ الْمُسْتَطِيلِ ، وَأَنَا أَدُقُّ  
الدَّسَاتِينَ بِعَصَوَيَّ دَقًّا شَدِيدًا بِكُلِّ قُوَّتِي ، حَتَّى أَتَمَمْتُ عَزْفَ لَحْنِ  
مُوسِيقِي رَائِعٍ ، أَمَامَ الْمَلِكَيْنِ (الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ) . وَقَدْ أَعْجَبَا بِهَذَا  
اللَّحْنِ الَّذِي كَلَّفَنِي جُهْدًا مُضْنِيًّا ، وَإِنِّي أَوْكُودُ الْقَارِي أَنَّنِي لَمْ أَتَكَبَّدْ  
فِي حَيَاتِي كُلَّهَا — مِنَ الْجُهْدِ وَالْعَنَاءِ — مِثْلَ مَا تَكَبَّدْتُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! ...

٤ — بَيْنَ « جَلْفَر » وَمَلِكٍ « يَرُدُّ نَجَاحَ »

عَرَفْتُ الْمَلِكَ — كَمَا أَسَلَفْتُ — وَاسِعَ الْعِلْمِ ، مَوْفُورَ الذِّكَاةِ ؛  
كَأَنَّ عَرَفْتُهُ طُلَعَةً ، مُوَلَعًا بِتَقْصِي الْأَخْبَارِ . وَكَانَ ذَلِكَ كَثِيرًا مَا يَدْفَعُهُ إِلَى

اسْتِدْعَائِي إِلَيْهِ ، وَالتَّحَدُّثِ مَعِي . وَكَنتُ أُحْمَلُ إِلَيْهِ فِي عُثْبَتِي ، ثُمَّ أُوَضَعُ عَلَى  
الْمِنْضَدَةِ — حَيْثُ أَخْرُجُ مِنَ الْعُلْبَةِ ، فَأَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ  
بِحَيْثُ أَكُونُ مِنْهُ وَجْهًا إِلَى وَجْهِ — ثُمَّ نَتَجَاذِبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ .



وَفِي يَوْمٍ مِنَ  
الْأَيَّامِ تَدَاوَلْنَا الْقَوْلَ ،  
وَشَجَّعَنِي مَا رَأَيْتُهُ  
فِيهِ مِنْ رَجَاحَةِ عَقْلِهِ  
عَلَى أَنْ أُكَاشِفَهُ بِمَا  
فِي نَفْسِي ، فَقُلْتُ لَهُ :

إِنِّي اخْتِطَرْتُ

لِأَهْلِ أَوْرُبَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ قَارَاتِ الْعَالَمِ لَا يَتَفَقُّ — كَمَا يَبْدُو لِي — مَعَ ذَلِكَ  
الْعَقْلِ الرَّاجِحِ الَّذِي يَمْتَنَزُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ . وَمَا أَجْدَرَنِي أَنْ  
أُكَاشِفَهُ بِمَا أَعْتَقِدُهُ صَوَابًا . فَإِنِّي أَرَى أَنَّ رَجَاحَةَ الْعَقْلِ لَيْسَ لَهَا أَيَّةُ  
صِلَةٍ بِبَضَخَامَةِ الْأَجْسَامِ وَكِبَرِهَا . وَقَدْ أَقْنَعَتُنَا الْمُلَاحَظَةُ وَالتَّجَارِبُ  
— فِي بِلَادِنَا — بِعَكْسِ مَا يَتَقَدُّه ؛ فَقَدْ طَالَمَا رَأَيْنَا أَنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ



قائمة ليس أوفرهم عقلاً ، وكثيراً ما رأينا من طِوالِ الناسِ مَنْ أصبحَ مَضْرِبَ المَثَلِ في الحماقةِ والغبَاةِ . وليس ذلك مقصُوراً على الإنسانِ وحده ، بل يشركه فيه بعضُ الحيوانِ . وقد امتازت النحلةُ كما امتازت النملةُ ، على غيرهما من الحيوانِ بِصُروبٍ شتى من المَهارةِ والذكاءِ يدهشُ لها المتأملُ . فإذا كنتُ — كما يراني — ضئيلَ الجسمِ ، فليس معنى ذلك أني ضعيفُ الفكرِ ؛ فقد أكونُ قادراً على أداءِ كثيرٍ من جلائلِ الأعمالِ !

وكان الملكُ يُصنِي إلى حديثي بأنبياءَ شديداً ؛ فاستصوبَ ما قلته له ، واقتنعَ بِصِحَّتِهِ ، وبدأ ينظرُ إليَّ — منذُ هذه اللحظةِ — نظرةَ احترامٍ وتقديرٍ ، وأكبرَ عقلي ، فلم يعدَ يقيسه إلى قامتي كما كان يفعلُ من قبلُ .

#### ٥ - حديثٌ عن الوطنِ

وقد كان من أثرِ ذلك أن أمرني أن أذكرَ له بياناً دقيقاً عن حكومةِ بلادِي ، ليقبسَ ما يراه من تقاليدَ صالحةٍ ، ومزايا نافعةٍ . ومثلُ لِنَفِيكَ - أيُّها القارئُ العزيزُ - ما كنتُ أشعرُ به حينَ طلبَ

إليَّ أن أتحدثَ عن وطني العزيزِ ! لَوَدِدْتُ - حينئذٍ - أن تكونَ لي عبقريَّةُ « ديمستين » و« شيشيرون » ، وروعةُ بَيَانِهِمَا ؛ لِأني وَطَنِي العزيزُ بعضَ حقِّه - من الوصفِ والتَّصويرِ - حتَّى أتركَ في نفْسِ الملكِ أسمى فكرةَ عنه .

#### ٦ - دارُ النِّبَاةِ

وقد بدأتُ حديثي بالكلامِ عن مَوْقعِ بلادِي الجُغرافيِّ ، وذكرتُ له أن بلادنا تتألفُ من جزيرتين تحويانِ ثلاثَ ممالكَ قويَّةٍ ، يحكمُها ملكٌ واحدٌ ، وأن لنا - إلى ذلك - مُستعمراتٍ في خارجِ بلادنا . ثم حدثتُه عن خِصْبِ أرضينا ، وعن أجوايها وأهويتها ، ووصفتُ له دارَ النِّبَاةِ عندنا ، وكيف تتألفُ من مجلسين ، أحدهما يُطلقُ عليه اسمُ : « مجلسِ الأعيانِ » والثاني : « مجلسِ العمومِ » ، وأن المجلسَ الأولَ يضمُّ سِراةَ البلادِ ونُبلاءَها وأشرفَها الذين نشأوا من أغرقِ الأسرِ الكريمةِ حَسَباً وأشرفِها نسباً ، بعدَ أن يأخذوا بأوفرِ قِسطٍ من الثقافةِ والتَّربِيَةِ العِلْمِيَّةِ والحَرَبِيَّةِ والسِّيَاسِيَّةِ ، حتَّى يَنْضَجَ عَقْلُهُمْ وتَسْتَقِيمَ فِطْرَتُهُمْ ، وَيُضَيِّحُوا أَهْلًا لِيَتَمَثَّلَ

البلاد ، فيكون لهم نصيبٌ في إدارة الحكومة ، ويكونوا موضع ثقة البلاد التي تُعِدُّهم للاستشارة في أكبر مُضَلاتِها ، وحل أزماتها ، والدفاع عن شرفها ، ثم تختارهم أعضاء في محكمة العدالة التي لا مُعَقَّب لأحكامها . وهؤلاء هم فخرُ البلاد وزينتها ، وأبرُّ أبنائها بها ، وأكرمهم عليها . وهذا المجلسُ يَصُمُّ - إلى تلك الصَّفوة المختارة من سادة البلاد وحُكَّامها - عددًا كبيرًا من صَفوة رجال الدين وعلمائِه المُمتازين ، وهؤلاء مَعْنِيُون بالسَّهر على الأخلاق ونُصرة الشريعة . وهم يَجْمَعُونَ - إلى مائة الخُلُق - سَعَة الإطلاع ، ورجاحة العقل : وبذلك كانوا أهلاً لهذه المركزِ السَّامِي الذي رَفَعْتُهُمْ إليه البلادُ .

...

أما المجلسُ الثاني - أعني « مجلس العموم » - فهو يتألف من أفذاذ المفكرين ورجال العمل الذين يختارُهُمُ الشَّعبُ ، ويُولِيهمُ ثِقَتَهُ ، وَيُنْيِبُهُمْ عنه ، بعد الذي عَرَفَهُ فيهم من المواهب السَّامِيَةِ ، والمزايا الثَّمِينَةِ ، والكفاياتِ النَّادِرَةِ ، والتَّغَايُ في نُصرة الوطن . وهذا المجلسُ يُمَثِّلُ حِكْمَةَ الشَّعبِ وِدْرَايَتَهُ .

وذكرتُ له أن هذين المجلسين يُكَوِّنَانِ أكبرَ مجلسٍ نيابيٍّ في العالم . وهذا المجلسُ - وعلى رأسه جلالةُ الملك - يُشْرِفُ على كلِّ شُؤْنِ المملكة ، وَيَسُنُّ لها النُّظُمَ التشريعيةَ ، ويقضي في كُبرىاتِ المسائلِ الجَوْهَرِيَّةِ التي تَشُلُّ بالِ الدولة .

...

ثم ذكرتُ له مَحَاكِمَنَا وما تَمَّازُ بِهِ من الحرصِ على العدلِ ، والفصلِ في منازعاتِ الأفراد ، وتَوْخِي النِّزَاهَةِ وَالْإِنصَافِ في الأحكامِ ، ومُطَابَقَةِ المجرمين ، وحِمَايَةِ الأبرياء . وامتدَّحْتُ له حُسْنَ إدارتنا المَالِيَّةِ ، وما يَتَوَخَّاهُ رجالُ الإِقْتِصَادِ عِنْدَنَا من الحِكْمَةِ في إِتْقَانِ أُمُوالِ الدولة في كلِّ ما يَبُودُ عليها بالقائِدةِ والخيرِ العميم . ووصفتُ له مزايا رجالِ الجيشِ من الجنودِ البرِّيَّةِ والبحريَّةِ ، وما يُظْهِرونه من البَسَالَةِ وَالِاسْتِهَادَةِ بِالموتِ ، وبذلِ أرواحِهِمْ رَحِيصَةً في الذُّودِ عن الوطنِ وحمايته من غاراتِ الأعداءِ ، وما امتازُوا به من الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ . وقلتُ له - فيما قلتُ - إن شَعْبَنَا يتألفُ من ملايينِ الرُّجَالِ وشيِّ الأحزابِ السِّيَاسِيَةِ والأديانِ الْمُخْتَلِفَةِ . وحدثته عن أَلَابِنَا وَمَلَاهِينَا ، ولم أَغْفِلْ شيئًا من خِصَائِنَا وَمَزَايَا



المشرفة. وختمت حديثي بالإمام بما وقع في بلادنا من الثورات منه مائة عام، وتوخيت - في ذلك - الإيجاز والدقة وحسن البيان. وقد استغرقت هذه المحاضرات خمس جلسات كاملة، كنت أتحدث في كل جلسة منها عدة ساعات. وكان الملك يصغي إلى أقوالى في انتباه ويقظة دائمين، ويكتب خلاصة ما أقول ليناقشه فيما بعد.

#### ٧ - أسئلة وانتقادات

فلما كان اليوم السادس، بدأ الملك يناقشني في كل ما ذكرته له مناقشة دقيقة، وكان قد أعد ملاحظاته وأسئلته، فأفضى إلى بدخلة نفسه، وكاشفني بما يساوره من الشكوك والريب فيما قلته له. ولقد كان - في الحق - دقيقاً في ملاحظاته، قاسياً في أحكامه، ولم يكن من المتيسور أن أقنعه بخطأ رأيه وبعده عن الصواب.

#### ٨ - أعيان الدولة

وإلى القارئ ما قاله لي في حوار طويل:

«ما هي الوسائل التي تتبناها في تشييد أبناء العظماء والتبلاء؟ وماذا

تصنعون بالأسر النبيلة التي يسلمها جدُّها العائر إلى التدفُّور والخراب، وهو أمر - كما تعلم - مألوف كثير الحدوث؟ وأي المزايا تشتري طون فيمن ترشِّحونه لمراتب الأعيان؟ وهل تظن أن للملك يدًا في اختيارهم، وأن لأهواء الأُمراء أثراً في تعيينهم - بما لديهم من مال وقوَّة - ليخلقوا منهم حزباً قوياً يؤيدهم وينصر سياستهم، ويحقق لهم ما تصبُّو إليه نفوسهم من آماني وأغراض، وإن عارض ذلك مصلحة الشعب؟ وما هو مبلغ علم هؤلاء الأعيان بقوانين بلادهم؟ ولماذا خصصتموهم بتلك الثقة العظيمة، وتركتم لهم القول الفصل، وجعلتموهم المرجع الأخير في أهم شئون الوطن؟ أظنون أنهم - لفسادهم وجاهلهم - قد خلصت نفوسهم من الشوائب والأغراض؟

#### ٩ - رجال الدين

ثم قال:

«وماذا ترى في علماء الدين؟ أتمتدُّ أنهم قد وصلوا إلى مراكم في دار النياحة بما امتازوا به من علم وفضل، وصلاح ووقار؟ وهل تظن أن

إخلاصهم وقداستهم وطهارة قوسهم هي التي أكسبتهم هذا المركز الرفيع ؟ وهل تعتقد أنهم خلصوا من الضغائن ، وتجردوا من الأهواء والنقائص ، ولم يرتكبوا - منذ نشأته - شيئاً من جرائم النفس والخداع والخيانة ، ولم يتملقوا أحداً من الأمراء والأعيان ، ليصلوا بذلك إلى أعلى مناصب الدولة الدينية ، حيث يرتقون إلى مجلس الأعيان ؟ »

#### ١٠ - انتخاب الثواب

ثم سألتني عن مجلس الثواب ، فقال :

« وماذا ترى في المجلس الثاني الذي ذكرته لي ؟ أراض أنت عنه وعن طريقة انتخابه ؟ أليس من الممكن المحتمل أن يجيء رجل مجهول - وفي يده كيس مملوء ذهباً - فيشترى به أصوات ناخيه ، فيكسب بالذهب ما لا يكسب بالمواهب والمزايا الباهرة ، ويفضله ناخبوه على منافيه الكفء الجدير بالنيابة عنهم ؟ ولماذا يتهاوت مواطنوك على الانتخاب ويتناحرون في سبيله ، لولا ثقتهم بأنهم - بعد أن يصبحوا نواباً - سيعوضون من كل ما خيروا من المال في معركة الانتخاب ؟ ولا شك أنهم سيتأسون في

سبيل ذلك مصالح البلاد ، تقرباً إلى ذوي النفوذ والجاه من الأمراء والأعيان ومن إليهم ؟ »

وقد انشاق في تعداد هذه الملاحظات القاسية وأمثالها ، واندفع يحمل - بلا روية - على نظمنا وتقاليدنا حملات قاسية ، وليس من الحزم ولا من الخير أن أذكرها في هذا الكتاب !

#### ١١ - دور القضاء

ثم انتقل إلى محاكمنا فانتقدتها ، وسألتني في شأنها ، وكم تشترق من الوقت في درس القضية والحكم فيها ؟ وكم تباع تقاضات الدفاع ؟ وكيف يقبل المحامون أن يدافعوا



عن قضايا خسيرة يستقون أنها لا تنفع هي والحقيقة ؟ وهل تتأثر هذه

للمحاكم في أحكامها بحزب بعينه ؟ أو تخضع لرأي عظيم من ذوي النفوذ والجاه ؟ وهل يحتكم القضاء إلى نصوص القانون وحدها ؟ أو يتأولون فيها وفق ما يروونه من شتى ضروب الشرح والتأويل ؟ وهل تتفق أحكام المحاكم المختلفة في قضية بعينها ، أو تتناقض في أحكامها ، لاختلاف آراء القضاة ، وتباين الشروح والتأويلات الكثيرة لنصوص القانون ؟

وقد كان في وُسمي أن أفيض في الكلام عن المحاكم وأصحح آراءه فيها ؛ فقد خبرتها في قضية كتبها - بعد زمن طويل - وقضت لي المحكمة بحق ، وبما تكبدته في سبيل الحصول عليه من المال ، بعد أن أشرفت على الخراب والإفلاس . ولكنني لم أَرَ فائدة في مناقشته وتصحيح آرائه ، بعد أن وجدت إقناعه من المستحيل . . .

## ١٢ - أموال الدولة

ثم انتقل إلى سُؤالي عن إدارة المالية ، فقال :  
« إنك - فيما يبدو لي - قد أخطأت في حسابك ، فإنك لم تقدر

الضرائب بأكثر من خمسة ملايين أوستة ، على حين أنك تذكر لي أن ما تنفقه الدولة يتجاوز بكثير دخلها الذي ذكرته لي ؟ ولست أستطيع أن أدرك كيف تنفق الدولة كل دخلها ، ثم تتخطى ذلك إلى الاستدانة من غيرها ، كما يفعل الرجل المبدّر سواء بسواء ؟

ثم خبرني - أيها العزيز - من هم دائنوك ؟ وكيف تؤدّون لهم ديونهم بعد أن خرجتم عن جادة القصد إلى الإسراف ، وبعد أن تمرّدتم على قوانين الطبيعة ، وتخطّيتُم سبل الحكمة والسداد ؟

## ١٣ - نفقات الجيش

ثم أبدى لي دهشته مما سمعته مني في شأن الأموال الطائلة التي أنفقناها في الحروب ، قال :

« لاشك أنكم مشاغبون تنزعون إلى الشر ، أو أن جيرانكم أشرار خبيثاء ! ثم خبرني : ما أنتم ومنازعات البلاد الأجنبية ومشكلاتها ، وهي لا تمت إليكم بنسب ؟ لعلكم تريدون أن يكون لكم - في خارج بلادكم - صلات أخرى غير صلات التجارة ؟ وما أحسبكم إلا طامعين في الفتح



والغزو؟ وما كان أجدركم أن توجهوا جهودكم كلها لإسعاد بلادكم، والدفاع عن مرافئكم، من غير أن تتطلع قلوبكم إلى ما في أيدي غيركم من الأمم. ثم خبرني - أيها الصديق - بعد ذلك: ما فائدة هذا الجيش الكبير الذي تُنفقون عليه في وقت السلم، ما دام شعبكم حراً راضياً عن حكومته ونظمه وتقاليده؟ وأيُّ تقع لهذا الجيش؟ ولماذا عنيتم به؟ وعنَّ يدافع؟ وأيُّ الأمم يُحارب؟ أليس من الخير أن يدافع سكان كل بيت عن بيته، وأن تشترك الأسرة ومَن في البيت من أولاد وخدم في حماية أنفسهم، فيكون ذلك أجدي عليهم، وأعود بالفائدة من أن يكلوا حمايتهم والدفاع عنهم إلى جماعة من اللصوص والأشرار، يؤثمون من خيانة الشعب ودهمائه، ويتقاضون على حمايتهم أجراً زهيداً يُغريهم بالرشوة والفساد: إذ يرون أن في وسعهم أن يذبحوا ويربِّحوا من ذلك ما لا كثيراً يُربى على ما يأخذونه من الأجر مائة مرة؟

#### ١٤ - ملاحظات عامة

ثم ناقشني فيما ذكرته له من اختلاف أحزاب الشعب ونزعاته

السياسية، وتصدد أديانه ومياله ونحله. وانتقل من ذلك إلى ما ذكرته له من أساليب اللغو التي يقضى سرائنا وأعياننا كثيراً من أوقاتهم فيها، قال:

«خبرني: في أية سن تبدأ ألعاب المراهنة؟ وفي أية سن يُعلمون عنها؟ وكل ساعة من الزمن تسترق منهم كل يوم؟ وإلى أي مدى تؤثر في ثروتهم، وتبدد من أموالهم، وتدفع بهم إلى الفاقة - بخطى سريعة - وتسوقهم إلى ارتكاب الدنيا والآثام؟ أليس ترى أن كثيراً من الأدياء السفلة الذين لا عمل لهم، والذين قرعوا من مشكلات الحيلة، ورصدوا أوقاتهم لهذه الألعاب، يستطيعون أن يفتنوا فيها، فيجنوا بمهارتهم وحنقهم من هؤلاء الأغرار ثروة عظيمة تسلكهم في عداد الأعيان والتبلاء، وتجعلهم يتحكمون في ساداتهم بعد أن يشرفوا على الخراب والإفلاس؟ ألا ترى أن من الحكمة وأسالة الرأي أن تقضي الدولة على مثل هذا اللغو الآثم للمزري؟»

ثم انتقل إلى مناقشتي فيما سمعته من الحوادث المفزعة في تاريخ القرن الماضي، ودعش أشد الدعشة من تلك الثورات والفتن والمؤامرات،

وما انتهت إليه من قتلٍ وتدميرٍ ، ونفيٍ وتعذيبٍ . وقال لي :  
« إنها دليلٌ على اللؤمِ ، والقسوةِ واليحدِ ، والطمعِ ، والجُنونِ ! »

### ١٥ - خاتمة المناقشة

وفي اليوم التالي أجملَ جلالتُه ما سمعته مِنِّي ، وما قاله لي ، ووازنَ بين  
أُسْلُتِهِ وأجوبَتِي ، وكان مُسِيكًا بِي بَيْنَ يَدَيْهِ وهو يُدَاعِبُنِي وَيَلَطِّفُنِي . ثم  
ختمَ محاضرتَه بهذه الكلماتِ القارعةِ التي لا أنساها ما حييتُ ، ولا  
أُنسى قسوةَ لهجَتِهِ وهو ينطقُ بها ، إذ قال :

« لقد مدحتُ وطنَكَ - يا عزيزي - مدحًا مُستفيضًا ، وفضلتُه على  
كلِّ البلادِ ، فدَلَلَتْنِي على أن الجَهْلَ والكسلَ والرذيلةَ يُمكنُ أن تُعدَّ - في  
بعضِ البلادِ - من المزايا الباهرةِ النادرةِ التي يمتازُ بها السُّرَّةُ والحكامُ ..  
ورأيتُ أن العوانينَ قد انتقصتْ ، وتآوَلَ رجالُكم في قسْرِها ما شاءَ لهمُ  
الهوى والفائدةُ واللباقةُ ؛ حتى أفسدوها وأخرجوها عمَّا وُضِعَتْ له . وقد  
علمتُ أن في بلادِكم نظامًا ربمَّا توخى به واضعُه غرضًا نبيلًا ، ولكنَّ فسادَ  
النفوسِ قد شوهه كلُّ التشويهِ . ولقد أيقنتُ - بما سمعته منك - أن

الفضيلةُ عندكم لا قيمةَ لها ؛ فإنني لم أجِدْ مَرْيَّةً واحدةً من مزايا الفضلِ  
ترفعُ صاحبها إلى آيةٍ مَرْتَبَةٍ من مراتبِ الرَّفعةِ والشَّرَفِ . فالتُّوَّابُ لم يصلوا  
إلى مكانَتِهِم من النِّيابةِ بإخلاصِهِم وفضيلَتِهِم ؛ ورجالُ الدينِ لم يَرْتَقُوا  
بِوَرَعِهِم وزُهْدِهِم وَعِلْمِهِم ؛ والجنودُ لم يَسْمُوا بِشجاعَتِهِم وإقدامِهِم ؛  
والقضاةُ لم يُدركوا مناصبَهُم بجدارَتِهِم وعدْلِهِم ، والشُّيوخُ لم ينالوا مكانَتَهُم  
بما أُشْرِبَتْهُ قُوسُهُم من حُبِّ الوطنِ ؛ ورجالُ الحكومةِ لم يظفروا  
بمناصِبِهِم بما أُوتوه من دُرْبَةٍ وحِكْمَةٍ وتجربةٍ ! »

ثم أَنهى حَدِيثَه قائلاً :

« أما أنت - يا عزيزي - فقد قضيتَ أكثرَ حياتِكَ في التَّجوالِ  
والأَسفارِ ؛ فلم تَسِرْ إِلَيْكَ - فيما أظنُّ - عَدَوِي هَذِهِ النقايسِ والرذائلِ التي  
انغمسَ فيها أبناءُ وطنِكَ . على أَنِّي - بعدَ ما سمعته من أقوالِكَ ، ومن  
إجاباتِكَ عن أسْئَلَتِي - أستطيعُ أن أقرَّ لك مُتَبَيَّنًا ممَّا أقولُ : أن قومَكَ  
جديرون أن يُوصَفُوا بأنهم أَلْحَطُّ أنواعِ الحشراتِ الصَّغيرةِ التي تَدِبُّ على  
وَجْهِ الأَرْضِ ! »

على مناقشات الملك، وتَحَبَّنتُ الفرصَ للردِّ على أقواله، وصَبَرْتُ  
مرتقياً يوماً آخرَ يكونُ أكثرَ ملاءمةً لإزالة ما عَلِقَ بنفسه من الأوهام  
والشُّكوكِ. وقد بذلتُ جُهدى فى إقناع ذلك الملك الذِّكْرِ الحَصِيفِ،  
ولكننى - لِوَهِّ الحِظِّ - لم أشعرْ بشيء من النَّجاحِ، بل أَخَفَقْتُ فى  
غرضى كُلِّ الإخفاقِ. على أَنَّنى التمسْتُ له شيئاً من العذرِ، لأنه إنما  
يمشُ فى عُرْلةٍ تامَّةٍ عن العالمِ، فهو لذلك يجهلُ - بطبيعته - أخلاقَ  
الأمم الأخرى وعاداتهم وتقاليدهم. وكثيراً ما يَنشأ عن العُرْلة والجهلِ  
بتقاليد الشعوبِ الخطأ فى الأحكامِ، والاستسلامُ إلى الخيالِ والوهمِ.

ومن البلاءِ أن نأخذَ كُلَّ اعتراضاتِ هذا الملكِ وانتقاداتِهِ وآرائِهِ فى  
فهمِ الفضيلةِ والرَّذيلةِ أُسْماً نَبَّيْ عليها نُظُمنا وتقاليدهنا؛ فهى آراءٌ بعيدةٌ عن  
التَّجَرِبَةِ والتَّمَحِصِ.

والحقُّ أنَّ بينَ تفكيرِنا وتفكيرِهِ هُوَّةٌ سحيقةٌ، فهو - بطبيعةِ نشأتهِ  
وعُرْلتِهِ - يرى فى كثيرٍ من قضايا الاجتماعِ والسياسةِ عكسَ ما نرى...

## ٢ - اختراع البارود

ولقد أردتُ أن أكيِّبَ عَظْفَهُ، وأتَحَبَّبَ إليه؛ فذكرتُ له مُخْتَرَعاً

## الفصل السادس

### ١ - اعتراضاتُ الملكِ

يَا بَنَى عَلَى إِخْلَاصٍ لِلْحَقِيقَةِ أَنْ أَكْتُمَ مَا جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ جَلَالَةِ الْمَلِكِ  
مِنَ الْحَدِيثِ، كَمَا يَأْتِي عَلَى إِخْلَاصٍ لَوْطَنِ أَنْ أَرَاهُ يَحْقُرُهُ وَيُزَيِّرِي بِهِ  
مِنْ غَيْرِ أَنْ أَدَافِعَ عَنْ شَرَفِهِ.

لقد أَجَبْتُ عَنْ أَسْئَلَتِهِ بِمَهَارَةٍ، ووصفتُ له كُلَّ شَيْءٍ فى بلادى



بأحسنِ ما يَصِفُهُ به مُحِبُّ لَوْطَنِهِ، وتَلَمَّستُ من مزاياه وَحَسَنَاتِهِ كُلَّ  
ما اسْتَطَعْتُ، ولم يكنْ دِفَاعى عن وطنى لِيَمْنَعَنِي الإِخْلَاصَ لِلْحَقِيقَةِ،  
والإِصْفَاءِ إِلَى كُلِّ رَأْيٍ صَحِيحٍ وَاضِعِ الْمَحَجَّةِ. وعلى هذا لم أَشَأْ أَنْ أُغْضَى



ظفرنا به - منذ أربعة قرون - وقلت له إنه مسحوق أسود تلهيه شرارة صغيرة في لحظة، فينسف - إذا شئت - جبالاً راسخة، وتسمع لفرقعة دويًا أشد من جلبة الرعود. وذكرت له أن من الميسور أن يضع شيئًا من هذا المسحوق في أنبوبة - صغيرة أو كبيرة - من البرنز أو الحديد، فينسف ما أمامه، ولا يصد قوته شيء بالغة ما بلغت صلابته. وذكرت له أن بعض هذه القذائف تنك بالجيوش الكثيرة العدد، وتذك أقوى الحصون، وتنسف أضخم البروج، وتغرق أكبر السفن، وتدمر أعظم المدن. فإذا وُضع هذا المسحوق في كرة من الحديد، وقذف بها الأعداء، فتكت بهم فتكا ذريعا، ودمرت مساكنهم وتناثرت شظاياها - في كل ناحية - فأهلك كل من أصابته، وسحقت كل ما يعترضها في طريقها. وقد ذكرت له أنني جدد خبري بأسرار هذا المسحوق وطريقة تركيبه، وأن ذلك لن يكلفني أي عناء؛ لأنه يتألف من مواد معروفة يسهل العثور عليها في كل مكان، وهي لا تكلف من يشتريها إلا ثمنًا قليلًا، فإذا أذن لي جلالته، أذعته له أسرار هذا الاختراع؛ ومتى عرف جلالته ذلك السر أصبح قادرًا على تدمير أقوى

المدن، وأمنع الحصون، وإخماد أية ثورة في زمن يسير، والتغلب على الأعداء من غير مقاومة. وختمت كلامي بقولي:

«وإني مستعد لتقديم هذه الهدية الصغيرة إلى جلالتيكم، اعترافًا مني بما غمرتني به من الرعاية والعطف العظيمين.»

### ٣ - آراء الملك

وما سمع الملك هذا الحديث، حتى بدت على أساريره أمارات الدهشة والمجب مما سمعه من أسرار هذا المسحوق المدمر. وزاد دهشته أنه لم يكن يدور بخلفه أن حشرة آدمية - غاية في العجز والضعف والحقارة - يمكن أن تتخيل مثل هذه المفزعات العظيمة، فتحدث عن ذلك الحصون وتنسف المدن - في سهولة وطمانينة وثقة إلى ما تقول - ولا يزعجها أن تذكر التدمير وتخريب البلاد والفتك بأهلها، لأنها ترى - في كل هذه الشئع والمذابح التي تنجم عن هذا الاختراع المهلك - شيئًا نافعا لا قيمة له ولا خطر.

ثم قال لي الملك:

« لست أشك في أن مخترع هذا المسحوق المهلك هو روح شرير خبيث لا ضمير له ولا دين . ولا أرتاب في أن الشيطان عدو الله هو الذي ألهمه أن يخترع هذه المهلكات ! »

٤ - محبة الخير

ثم قال :

« إنني لا أطرب إلا للاختراعات النافعة التي تفيد الجنس الإنساني ، سواء أذلت قوى الطبيعة وسخرتها لخير الإنسان ، أم عملت على رقي القنون وقدّمها . وإني لأوثر أن أقعد ملكي وأنزل عن عرشي ، على أن ألجأ إلى استعمال هذه الاختراعات المهلكة المشؤمة . فحذار حذار أن تكشف سر هذا الاختراع لأحد من الشعب ، فإنك - إن فعلت - فليس لك عندي من جزاء - على إذاعة هذا السر - إلا القتل ! »

...

ولقد عجبت أشد العجب من إصراره ، وعدم قدره فوائد هذا الاختراع الذي أمكننا به التغلب على خصومنا بأيسر عناء . بيد أن

هذا الملك قد تحلى بكل الصفات المحمودة ، وتشبعت نفسه بالخير والرحمة ، فأحبه شعبه ، وأعجب بفضائله ، وأشاد بمزاياه ، وأكبر له ذكاه وحصافته وحكمته وسعة علمه . وكان هذا الملك عادلاً محباً لتقدم شعبه ورفعته ، قدسته الرعية كل التقدير . ولم يكن مثل هذا الملك ليُسرع إلى انتهاز الفرصة السانحة لإرهاق من يخالفه أو يثور عليه ، لأنه لم يكن يعنيه أن يصبح سيّداً مستبداً مطلق التصرف والسلطان في حياة رعيتيه وحرّيتهم ، ولكن يعنيه أن يفهمهم ويجلب لهم السعادة والرفاهية والخير العميم ، وإذا كان قد رفض الإصغاء إلى نصيحتي فإن ذلك لا ينتقص من فضله وذكائه ، ولا أحسب القارئ يخطئه في ذلك ، فإن سياسة هذه الشعوب قائمة على الصراحة ، وهي لم تصبح - كما هي عندنا - فناً يحتاج إلى طول الدرس والمرانة والخبرة ...

ولقد ذكرت له ذات يوم - في بعض حديثي - أن في بلادنا أسفارا ضخمة كتبها مؤلفوها عن فن الحكم . وأسلوب سياسة الشعوب ، فاستنتج من ذلك أننا ضياف القول ، صغار الأحلام ، واعتقد أننا أم غارقة في الجهالة والهمجية ، وقال لي :

« إنني أحتقر الدسائس والخيانة والجاسوسية في أعمال الملك والدولة والوزارة، كما أحتقر أن يلجأ الحكام إلى الأسرار الخفية في أعمالهم وأحكامهم . »

ولم يستطع أن يدرك ما أعنيه بأسرار الدولة، وما تنطوي عليه من سياسة، وظن أننا نعي بذلك صغار القضاة، والأحكام التي لا خطر لها .  
ولقد قال لي، فيما قال :

« إن الإنسان إذا استطاع أن يُنبِت سُنْبِلَتَيْنِ من التمح في أرض لا تُنبِت إلا سُنْبِلَةً واحدة، أو قدر على إنبات عُودَيْنِ من العُشْبِ في أرض لا تُنبِت إلا عُودًا واحدًا، فهو عندي رجلٌ نافعٌ، جديرٌ بالتقدير والثناء، لأنه استطاع أن يُؤدِّيَ لبلاده وإخوانه خدمةً إنسانيةً عظيمةً، هي أجدي وأعودُ بالفائدة عليهم من كلِّ ما يصنعه كبار الساسة، وأساطين السياسة ! »

## هـ - آدابُ المعاملة

أما أدبُ هذا الشعب، فهو أدبٌ ضئيلٌ، وليس في أنفسهم من الألفاظ إلا ما يدُلُّون به على الأخلاق والتاريخ والشعر والرياضة، وهم يُجيدون هذه العلوم الأربعة إجادةً تامةً . ولا يُعنون بالعلوم العقلية والفلسفية وما إلى ذلك، ولا تتجاوز حروفهم الهجائية أربعة وعشرين حرفًا، وقوانينهم مُجَمَّلةٌ شديدة الإيجاز واضحة الأداء، يفهمها كلُّ إنسانٍ بآيسر نظير وأدنى فكرٍ . وهم لا يحتاجون إلى شرح قانونهم، فإن لكلِّ جريمة عقابًا لا يقبل تأويلًا ولا فلسفةً . وليس يُميزُهم ذكاءٌ نادرٌ .

أما المطابع، فقد اهتموا إليها قبل عهد التاريخ - كما اهتموا إليها الصينيون - ولكنك لا تجد عندكم مكتبات كبيرة، فإن مكتبة الملك - وهي أكبر مكتبة في تلك البلاد - لا تحوي أكثر من ألفِ سفرٍ . وهي في خزائنه طولها ألف قدمٍ ومائتا قدمٍ . وقد أذن لي في أن أقرأ منها ما أشاء . وكنت إذا أردت أن أقرأ كتابًا، أمر جلالتُه بوضعه على مائدة كبيرة، فأقف فوق صفحته العظيمة، وأمشي عليها ثمانى خطواتٍ أو



عشرًا — على حسب طول سُطوره — فإذا انتهت من قراءة الصفحة،  
رفعتها بكلتا يدي لثقل حجمها، وثخانة ورقها.



أما أسلوبهم في  
الكتابة فهو واضح  
سهل، لا تكلف فيه ولا  
لبس، وم لا يُعنون  
بالإفتان في الأداء، ولا  
يلجئون إلى المترادفات،

ولا يُغيرون أساليبهم في التعبير، ولا يزيدون في كتاباتهم لفظًا واحدًا  
لا يحتاج إليه المعنى. وقد تصفحت كثيرًا من كتبهم، ولا سيما كتب  
التاريخ والأخلاق، وقرأت رسالة صغيرة قديمة — كانت في غرفة  
الحاضنة — عنوانها:

« رسالة في ضعف الجنس الإنساني » ؛ وهذه الرسالة دأمة مشهورة  
في تلك البلاد، تُقبل على قراءتها النساء وعامة الشعب.

## ٦ — فصل من كتاب

ولقد شاقني أن أقرأ فصلًا من هذا الكتاب الذي ألفه أحد هؤلاء  
العالمية في إظهار ضعف الجنس الإنساني وعجزه؛ فرأيت المؤلف يدلل  
فيه على عجز الإنسان وحقارته — أمام سلطان الطبيعة وجبروتها، وقوة  
الحيوانات المفترسة وبطشها — بأن بعض الحيوانات يفوقه قوة وسرعة،  
وبعضها يفوقه ذكاء ومهارة وحسن نظام.

وقد رأيت المؤلف الكتاب يميل إلى الحكم بأن الطبيعة قد فسدت في  
القرون الأخيرة، وأن العالم سائر إلى الضعف والانحلال؛ لأن قوانين  
الطبيعة — في زعمه — كانت تقضى بإيجاد الأجناس البشرية القوية،  
ذات الأجسام الضخمة والقامات المرتفعة، وكان الناس منذ بدء الحياة في  
القرون النابرة أقوىاء أصحاء، وكانوا — لقوتهم وصحتهم — آمينين من  
الأخطار والتغيرات الفجائية التي كثيرا ما أودت بنا لضعفنا وضالة أجمعنا.  
ثم يقول: « أما نحن فناية في الضعف، وإن حجرًا من الآجر يُلقى  
علينا من أعلى منزل — أو يذفنا به غلام صغير — لا يلبث أن يودي

بِحَيَاتِنَا ، وربما غرق أحدنا - لضآلته - في نُهَيْرٍ . « وقد استنتج المؤلفُ من ذلك الضعفِ عدةَ قوانينَ رآها نافعةً للسَّيرِ في هذه الحياةِ باعتدالٍ .

## ٧ - حَقَارَةُ الْإِنْسَانِ

أما أنا فقد غرقتُ في بحرٍ من التفكيرِ ، وطافتْ بذهني شتى المعاني والخطاتِ ، حينَ رأيتُ جميعَ النَّاسِ يَنْزِعُونَ بطبيعتهم إلى الشكوى مِنَ الطَّيْعَةِ ، وَيَعَزُّونَ إليها أَكْثَرَ السَّيِّئَاتِ وَالضُّيُوبِ ، وَحَمْلُونَ الزَّمَنَ أَوْزَارَ مَا يَتَأَلَّمُونَ مِنْهُ .

وذكرتُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعَالِقَةَ - على ما وصلوا إليه ، من ضخامةٍ وقوةٍ - لا يزالون يَجْدُونَ أَتْسَهُمْ صِغَارًا ضِعَافًا . فكيف بأمثالي من بَنِي الْإِنْسَانِ الَّذِينَ لَا يُقَابِسُونَ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمَرَدَّةِ ؟ ورأيتُ ذَلِكَ الْمُؤَلِّفَ يَقُولُ :

« إِنَّ بَنِي الْإِنْسَانِ لَيْسُوا إِلَّا حَشَرَاتٍ ضَبِيلَةٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَدِيدَانَا لَا خَطَرَ لَهَا ، وَلَيْسَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا ذَرَّةٌ خَيْرَةٌ ، غَايَةٌ فِي الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ . »

فامتَلأتْ نفسي حزنًا وأسفا حينَ قرأتُ هَذَا الْكَلَامَ ، وقلتُ لِنَفْسِي :

« وَأَسْأَلُ عَلَيْنَا ! إِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْعَالِقَةُ الْجَبَّارَةُ يَرُونَ أَتْسَهُمْ غَايَةً فِي الْقَمَاعَةِ وَالضَّعْفِ ، فَكَيْفَ بِنَا وَلَسْنَا شَيْئًا مَذْكُورًا بِالْقِيَاسِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمَرَدَّةِ ؟ »

...

وقد عَرَّضَ مُؤَلِّفُ الْكِتَابِ لِلْكَلامِ فِي الْكِبَرِيَاءِ وَالزُّهْرِ ، وَأَتَّحَى بِاللَّامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوُوعِهِمْ بِالْأَوْصَافِ الْفَارِغَةِ ، وَتَهَاوُنِهِمْ عَلَى أَنْ يَوْصَفُوا بِالْقَابِ السُّمِّ وَالْمَظْمَةِ ، وَرَأَى أَنَّ مِنَ الْمُحْزِنِ الْمُؤَسِّفِ أَنْ يَفْخَرَ بِإِنْسَانٍ ضَعِيفٍ - مِنْ بَنِي جَنْسِهِ - بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ ، وَهُوَ لَا يَزِيدُ فِي طَوْلِهِ عَلَى مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قَدَمًا ، وَأَنْ يُدِيلَ بِطَوْلِهِ وَضَخَامَتِهِ ، وَهُوَ لَا يَزَالُ قَرَمًا ضَعِيفًا . فقلتُ في نفسي : « إِذَا صَدَقَ هَذَا الْمُؤَلِّفُ فِي قَوْلِهِ ، فإِذَا يَقُولُ أُمَرَاؤُنَا وَعَظَمَائُنَا إِذَا قَرَأُوا هَذَا الْكَلَامَ ؟ وَمَاذَا يَصْنَعُونَ ، وَمَا لَا يَزِيدُونَ - فِي ارْتِفَاعِ قَامَاتِهِمْ - عَلَى خَمْسِ أَقْدَامٍ وَيَضَعُ أَصَابِعَ ، ثُمَّ تَتَطَلَّعُ نَفْسُهُمْ إِلَى الْقَابِ السُّمِّ وَالْمَظْمَةِ ؟ وَلَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا لَا يَنْشُدُونَ الْقَابَ الضَّخَامَةِ وَالرُّعْصِ وَالْكَثَافَةَ ؟ وَلِمَلِ أَحَدُهُمْ يُجِيبُ عَلَى اعْتِرَاضِي بِأَنَّ السُّمَّ وَالْمَظْمَةَ خَاصَّانِ بِالرُّوحِ لَا بِالْجَسَمِ . فَإِذَا صَحَّ قَوْلُهُمْ هَذَا ، فَمَا

بأنهم لا يتخيرون لهم ألقاباً صريحة في أداء هذه المعاني بجلالة ووضوح؟ وما بأنهم لا يقولون: «صاحب الحكمة، وصاحب الذكاء، وصاحب التبصر، وصاحب الكرم، وصاحب الطيبة، وصاحب الضمير» بدل قولهم: «صاحب الرئاسة، والعظمة، والفخامة» وما إلى تلك.

يجب أن نعترف بأن تلك الألقاب أجمل وأشرف من هذه، وفيها رقة ولطف إذا حيوا بها ممن هم دونهم مقاماً. أما أن يصفوا أنفسهم بالرفعة والسمو والعظمة، وهم على مثل ما ترى من ضعف وضآلة؛ فذلك تناقض مضحك عجيب! ،

#### ٨ - نظرة عامة

أما علوم أولئك المعاقلة في الطب والجراحة والصيدلة، فقد برعوا فيها بمقدار يناسب حاجات البلاد. وأما جيشهم فهو مؤلف من اثنين وثلاثين ألفاً من الفرسان، وهم من التجار والفلاحين، وقوادهم من النبلاء والأعيان. وهم لا يتقاضون على ذلك أجراً، فإن كلاً منهم منصرف إلى عمله، وكل فلاح تحت إمرة أحد الأعيان؛ فإذا جدَّ الجَدُّ، جُنِّد منهم جيش يبلغ هذا العدد.

وقد عَجِبْتُ لماذا يُعْنَى الملك بتدريب هذا الجيش على الحرب وهو آمن من غارات الأعداء. ولكنني - بعد أن درست تاريخهم - علمت أن هذا الشعب لم يَسَلَمْ - فيما مضى من الزمن - ممّا أُصِيبَ به غيره من الشعوب الأخرى، أعنى الحرب الأهلية، وتنازع الأعيان والنبلاء على الحكم، وتطلُّع الشعب إلى الحرية، ورغبة الملك في الاستئثار بالحكم والسلطان.

...

على أن قوانين المملكة الحكيمة، وتقديس الشعب لملكه القائم قضيًا على هذه الفتن الداخلية، وأصبحت البلاد في أمان من المنازعات المقلقة والاضطرابات العنيفة.



البلاد، لأنسل ذرية من أبنائي، نوضع في الأقفاس كما توضع العصافير، ثم تباع بعدئذ في أنحاء المملكة للثراء والأعيان، كما تباع الطير والطرف والحيوانات الصغيرة الغريبة، ولقد كانوا - في الحقيقة - ياملونني أحسن معاملة، وقد اختاروني نديمًا للملك والمملكة، وكنت في هذه البلاد بركة العاشية والسرقة. ولكنني كنت أشعر أن هذه الحفاوة كلها لا ترضي نفس رجل يشعر أنه إنسان مستقل حر له كرامة، ولم أكن لأتسى أفلاذ كبدي وزوجتي بعد أن تركتهم في بيتي النائي البعيد. وكان أكبر أمان أن أعيش في شعب يمايلني وأماثلته، وأجد فيه أصدقاء وخلعاء من أندادي وأقراني، وأظفر بحرّيتي كاملة في التجوال - في الطرق والحقول - بلا رهبة ولا حذر. ولا كذلك كنت في تلك البلاد التي ظلمت أوقع فيها - بين لحظة وأخرى - أن يستحقني أحد أبنائها المماقة بقدمه، كما نلحق الحشرة الضئيلة، دون أن نشعر بمكانها من الوجود!

## ٢ - مرعجات « بربدنجاج »

ولقد كان من الميسور المحتمل أن أقضى حياتي في تلك البلاد، لو لا

## الفصل السابع

### ١ - ذكريات الوطن

كان يدور بخليدي دائمًا شعور خفي، يوحى إلي أنني سأحصل - في يوم من الأيام - على حرّيتي، وأعود إلى وطني. ولم أكن أعرف ما هي الوسيلة إلى تحقيق هذا الحلم اللذيذ، ولقد طالما فكرت في ذلك، فلم أعد من تفكيري بطائل، وأخفقت في الاهتداء إلى تدبير تلوح لي فيه أية بارقة من بوارق الأمل في الخلاص من تلك البلاد.

ولقد كنت على ثقة من انقطاع هذه الجهة التي نزلتها عن بقية العالم. كما كنت على يقين من أن أول سفينة اقتربت من تلك البلاد، هي سفينة التي غرقت - فيما اعتقد - بالقرب منها.

وقد أصدر الملك أمرًا بمراقبة أي سفينة تدنو من شواطئ بلاده، وإحضار من فيها من الناس إليه، لعله يعثر - من بينهم - على زوجة صالحة لي. أما أنا فقد كنت أؤثر أن أموت على أن أتزوج في تلك

فمأتني وقصّر قمتي ، وما جرّه ذلك على من الأخطار والمخاوف التي يضيق عنها الوصف ، والتي لا أعدّها ، بل أعدّها منها ما حدث لي ذات يوم مع قزّم الملكة ، قبل أن يحلّ عليه غضبها ونقمتها . فقد التقيت به في حديقة القصر الملكي ، بالقرب من شجرة تفاح صغيرة . وما وضعتني الحاضنة على الأرض ، حتى أقبل على ذلك الخيث يحيني ساخرًا من قصّر قمتي ؛ فقابلت سُخْرِيته بمثلها . فأسرها في نفسي ؛ وما بعدت الحاضنة عني قليلًا حتى انتهر القزّم الخيث تلك الفرصة ، وهزّ غصنًا من أغصان تلك الشجرة ؛ فتأثر تفاحه على الأرض ، وسقطت على عشر تفاحات - في مثل حجوم البراميل - فكادت تقتلني قتلا . ولكنني تجلّدت أمامه ، وعُدْتُ على نفسي باللائمة ، وعزمت على ألا أمارحه بعد ذلك اليوم .

...

وتساقط البرد - ذات يوم - وأنا جالس في الحديقة ، وكانت الحاضنة تحدث إحدى رفيقاتها ؛ فهويت إلى الأرض وأنا بين الحياة والموت . ولولا أنهم أسرعوا بنقلي إلى الفراش لأصبحت في عداد

الهالكين . على أنني تماثلت من العرض بعد ثمانية أيام . وقد كان كل شيء - كما أسلفت - مناسبًا سكان هذه البلاد . وقد وزنت حبة واحدة من حبات البرد المتسلطة ، فرأيتها أكبر من حبات البرد التي نراها عندنا ألفًا وثمانمائة مرة .

٣ - في فم كلب



وما أنس لا أنس  
يوم تركتني الحاضنة  
في الحديقة لأتزه  
وحدى ، وأخلو إلى  
قسي ؛ وكانت تأنس  
مني - في أغلب  
الأحايين - مَيلاً إلى  
العزلة والتفكير .  
وما تركتني

في الحديقة - بعد أن وثقت أنها قد خلقتني في مكان أمين - حتى لقيت  
 كلباً صغيراً . وما شئ رائج - من بيدر - حتى أسرع إلى ،  
 فأخذني في فيه ، وجرى مسرعاً إلى صاحبه البستاني ، ووضعني أمامه ،  
 ووقف يُبصِّصُ ( يُحرِّكُ ذنبه ) . وكان البستاني يرفني ، فأسرع  
 إلى يلاطفني ويواسيني ، ويسألني : كيف أجدني ؟ وهل أصابني سوء ؟ ولم  
 يكن في قدرتي أن أجيبه - وقتئذ - قد أغشى علي ، ولم أفق من غشيتي  
 إلا بعد دقائق . وما اطمأن على سلامتي حتى حملني مترقفاً إلى حيث  
 كنت ، فرأيت الحاضنة تبحث عني وتناديني ، وقد امتلأت قلبها حزناً  
 وألماً حين عادت إلى مكاني فلم تجدني فيه . فلما حدثها البستاني بما جرى لي  
 راحت تنهال عليه لوماً وقريعاً لما سببه لي كلبه من الإزعاج والألم .  
 وقد قبلت عذر البستاني - بعد حوار طويل - ووعده بأن تكتم  
 الحادث المشؤم عن الملكة ، حتى لا تنزل به عقابها الصارم !

#### ٤ - خواطر مؤلمة

وقد آلت الحاضنة على نفسها ألا تقارني لحظة واحدة حتى لا أترفض

لمكروه بعد ذلك اليوم . ولقد طالما خشيت منها هذا التضييق الشديد على  
 حرّيتي ، فكتمتها أكثر ما وقع لي من الحوادث . ولست أنسى أن جعلاً  
 ( وهو صنف من الخنافس ) حاول أن يبتلعني ، فلم ينقذني منه إلا حضور  
 بدوي ؛ إذ أسرع إلى شجرة مُدَلِّيَّة أغصانها على حائط الحديقة ،  
 فاختصت بها ، وأخرجت مدّتي ، لأدفع أذاه عن نفسي .

وما أنسى أنني هويت - ذات يوم - في جحر جرذ ( وهو نوع من  
 الفأر ) ، فوسّعتني إلى عنقي ، ولم أخرج منه إلا بعد عناء شديد .

وكنت أفكر في وطني - ذات يوم - وإني لفارق في ذكرياتي  
 وخواطري ، إذ اغترضتني في طريق قشرة شجرة ، فكادت تهضي علي .

وكانت الطيور تهزأ بي - لضالتي وقماتي - ولا تغشاني . وقد بلغ من  
 استخفافها بي ، أن عصفوراً وقعاً خطف من يدي قطعة من الحلوى كبت  
 آكلها ! وكنت إذا حاولت أن أدنو من تلك الطيور لأقبض عليها انفتت  
 إلي ، وحرّكت مناقيرها مُنذِرةً مُتوَعِّدةً إني أن تقتك بي ، ثم سارت في  
 طريقها وادعةً تلتقط ما شامت من الدود والحَب .



على أن الله - سبحانه - قد كتب لي الخلاص من هذه البلاد بسرعة عجيبة ، ويسر لي عنايته أن أعود إلى وطني بطريقة لا تخطر على بال ، كما سيرى القارئ فيما بعد .

لقد مضى على عامين ، وأنا في تلك البلاد . وفي مُستهل العام الثالث خرجت مع الحاضنة والحاشية - في ضجة جلالتى الملك والملكة - إلى سياحة في الحدود الجنوبية للمملكة . وقد حملوني في العربة التي كانوا يُعدونها لأسفاري ، وهي حجرة ثلاثى كل الملاحة ؛ عرضها اثنا عشرة قدماً . وقد طلبت إليهم أن يشدوني بأربعة خيوط من الحرير إلى أركان الحجرة الأربعة ؛ حتى لا أشعر باهتزاز واضطراب في أثناء سير الجواد ، الذى كان يمتطيه أحد الخدم ويضع علبتى أمامه مُحافَظَةً على .

وقد طلبت إلى التجار أن يصنع لي ثقباً صغيراً في سطح علبتى بمقدار قدمٍ ربعة ؛ لينفذ إلى الهواء منه ، وليتسنى لي أن أفتح وأغلقه بمصاى كلما أردت .

وما وصلنا إلى نهاية سياحتنا ، حتى رأى الملك أن يقضى بضعة أيام متزهاً في مدينة من مدن بلاده ، تقع على مسافة ثمانية عشر ميلاً من شاطئ البحر . ولقد جهدتني هذه السياحة ، وجهدت معى الحاضنة . وقد أصبت بركام خفيف ، كما انحرقت صيحة الحاضنة المسكينة ؛ فقد كانت مضطرة للبقاء إلى جانبي ، والسهر على راحتى ، والعناية بأمرى دائماً . واشتد شوقى إلى رؤية البحر ؛ فظاهرت بأن وطأة المرض قد اشتدت بى ، ولم أقصد بذلك إلا أن يؤذن لى باستنشاق هواء البحر مع خادم كانوا يسهّدون إليه بأمرى فى بعض الأحيان . وكنت آنس إليه ، وأراح إلى خلقه .

ولست أنسى معارضة الحاضنة فى ذلك ، وكيف تألمت لفراق أشد الألم ، ولم ترض بذلك إلا بعد أن أوصت الخادم بى ، وألحّت عليه فى العناية بأمرى . ولما وقفنا للوداع همت الدموع من عينيها ، وكأنا أحس قلبها شراً مُستطيراً ، أو لعلها شرت فى أعماق نفسها أنها لن ترائى بعد ذلك اليوم .

« وللنفس حالاتٌ تُريها كأنها تُشاهدُ فيها كلَّ غيبٍ ستشهدُ »

#### ٧ - على شاطئ البحر

ثم حملني الخادمُ في عُلبتي ، وسار بي نحوَ نصفِ ميلٍ ، بعيداً عن القصرِ  
الملكِيِّ المُشيدِ في تلكِ المدينةِ ، ومضى صوبَ الصُّخورِ على شاطئِ البحرِ .  
فطلبتُ إليه أن يضعني على الأرضِ ، ثم فتحتُ إحدى نافذتي ، وأخذتُ  
أُجِلُّ بِصَري في أرجاءِ البحرِ بِعَيْنٍ مُفَرَّوْرَةٍ بالدُّمُوعِ ، وتفسُ كَثِيبَةً  
محزونةً . ثم رأيتُني في حاجةٍ إلى النومِ ؛ فطلبتُ إلى الخادمِ أن يُغلقَ  
النافذةَ حتى لا أُصابَ ببرْدٍ . وقد استسلمتُ لنومٍ عميقٍ ، ولستُ أدري



ماذا صنع الخادمُ  
بعد ذلك . ولعلَّه قد  
اطمأنَّ إلى أنني في

مكانٍ أمينٍ . ووثقَ بأنني لن أُصابَ بسوءٍ ؛ فراح يتسلَّقُ الصُّخورَ باحثاً - في  
أوكارِ الطيورِ - عن أفراخها وبَيْضِها ، وقد كنتُ رأيتُهُ من خلالِ نافذتي  
يصلُ ذلكَ قبلَ أن أنامَ .

#### ٨ - في أجوازِ الفضاء

ثم استيقظتُ بَغْتَةً ، وقد شعرتُ أن عُلبتي تهتزُّ اهتزازاً عنيفاً ، وترتفعُ  
إلى علوٍ شاهقٍ مُندفعةً إلى الأمامِ بسرعةٍ لا مثيلَ لها . وشعرتُ أن الرَّجَّةَ  
الأولى كادت تهذفُ بي من العُلبَةِ التي كنتُ فيها ، ثم خفتِ الحركةُ قليلاً  
قليلاً ؛ فصرختُ بأعلى صوتي ، ولكنَّ صُراخي ذهبَ أذراجَ الرِّيحِ .  
ونظرتُ من خلالِ نافذتي ، فلم أرَ غيرَ السُّحُبِ - السُّحُبِ وحدها -  
وسمعتُ ضجَّةً مفرَّعةً فوقَ رأسي ، تُماثلُ خفقَ الأجنحةِ . وثمةُ  
أدركتُ حَرَجَ مركبي ، وعلمتُ مَدَى الخطرِ الذي أنا مستهدفٌ له . وألقيتُ  
في رُوعي أن نَسراً كبيراً - من نُسُورِ تلكِ البلادِ - قد حملَ العُلبَةَ  
بِمِنْقارِهِ . وهو يوشِكُ أن يُلقِيَ بها من حالي إلى الصُّخورِ - كما تُلقَى  
السُّلْحَفَةُ قشرةً من فيها إلى الأرضِ - ثم يفتَرسني بعد ذلك . ولقد كنتُ  
أعرفُ هذا الطائرَ ، وما أُوهِبَهُ الله من حاسةِ الشَّمِّ القويَةِ التي تهديه إلى  
فريسته على مسافةٍ بعيدةٍ ؛ فأدركتُ أنه اهتدى إلىَّ ، مع أنني كنتُ مختفياً  
عن ناظرِهِ تحتَ ألواحٍ مِنَ الخشبِ ، تُخانةُ كلِّ لَوْحٍ منها إصبعانٍ . وبعدَ

وقتٍ قصيرٍ شعرتُ أن حَفَقَاتِ جَنَاحِيه بدأتْ تزدادُ وتشدُّ ، ثم سمعتُ

ضرباتٍ عنيفةً ، ورأيتُ عُلبتي

تَرْتَعِلُ - في عُنْفٍ وهِدَّةٍ -

فأدركتُ أنني هَوَيْتُ - في أَقْلٍ

من دَقِيقَةٍ - بِسُرْعَةٍ لا تَمُرُّ

بِخَاطِرٍ .

وشعرتُ - في أَثْنَاءِ

سُقُوطِي - بِهَزَّةٍ عَنِيفَةٍ رَنَّ دَوِيُّهَا

في أُذُنِي ؛ فَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي أَسْمَعُ

دَوِيًّا أَشَدَّ مِنْ دَوِيِّ الشَّلَالِ ، ثم أصبحتُ في ظِلَامٍ حَالِكٍ مُدَّةَ دَقِيقَةٍ

أُخْرَى . ثم ارتفعتْ عُلبتي ثانية ؛ فرأيتُ ضوءَ النهارِ من أَغْلَى نافذتي ؛

فأدركتُ - حينئذٍ - أنني قد هَوَيْتُ إِلَى الْبَحْرِ ، وَأَنَّ عُلبَتِي سَابِحَةٌ

تَتَقَاذَفُهَا الْأَمْوَاجُ الْمُضْطَحِبَةُ ، كَأَنَّهَا رِيشَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي سَهَبٍ رِيحٍ عَاصِفَةٍ

هُوَجَاءَ .

ودارَ بَحَلْدِي أَنْ تَسْرِينَ أَوْ تَلَاةً قَدْ تَقَبَّأَ - فِيمَا أَظُنُّ - النَّسْرَ الَّذِي

كَانَ يَحْمِلُ عُلبَتِي ، فَغَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ ، وَشَغَلَهُ بِالدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَاضْطُرَّ إِلَى

تَرْكِي ، وَلَمْلَمَهُمَا كَأَنَّا يُحَاوِلَانِ اخْتِطَافِي مِنْهُ . فَلَمَّا هَوَيْتُ إِلَى الْبَحْرِ كَادَتْ

عُلبَتِي تَتَفَكَّكُ ، لَوْلَا الصَّفَائِحُ الْحَدِيدِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهَا خَيْرُ سِيَاجٍ ، فَحَفِظَتْ

تَوَازُئَهَا ، وَحَالَتْ دُونَ تَكْسُرِهَا وَتَحْطُمِهَا بَعْدَ سُقُوطِهَا مِنْ ذَلِكَ الْإِرْتِفَاعِ

الشَّاهِقِ .

أَو ! لَوَدِدْتُ - حِينَئِذٍ - أَنْ عَزِيزَتِي الْحَاضِنَةُ الْمَخْلُصَةُ كَانَتْ إِلَى

جَنْبِي لِتُسَاعِدَنِي عَلَى الْخَلَاصِ مِنْ هَذَا الْحَادِثِ الْمَفَاجِئِ . وَلَمْ يُنْسِنِي مَا أَنَا

فِيهِ مِنْ شَقَاءٍ ذِكْرِي هَذِهِ الْقِتَافِ الْمَخْلُصَةِ ، وَأَسْنَى عَلَى فِرَاقِهَا ، وَعَلَى

مَا يَنْتَابُهَا مِنَ الْحُزَنِ الْعَمِيقِ حِينَ تَفْتَقِدُنِي فَلَا تَرَانِي أَمَامَهَا . . . . . !

وَذِكْرْتُ حُزْنَ الْمَلِكَةِ عَلَى فِرَاقِي ؛ فَتَأَثَّرْتُ لِذَلِكَ أَشَدَّ التَّأَثُّرِ . وَإِنِّي

لَعَلِّي يَقِينٌ مِنْ أَنَّ قَلِيلَيْنِ جَدًّا مِنَ السَّائِحِينَ قَدْ وَجِدُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَازِقِ

الْحَرَجِ الَّذِي وَجَدْتُ فِيهِ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَحْطُمَ عُلبَتِي بَيْنَ لَحْظَةٍ

وَأُخْرَى ، أَوْ تَنْقَلِبَ بِي - عَلَى الْأَقْلِ - إِذَا عُنْفَتْ بِهَا الرِّيحُ ، أَوْ طَغَى

عَلَيْهَا الْمَوْجُ .



## ٩ - الأمل بعد اليأس

ولقد كسرتُ لوحًا زجاجيًا من ألواح النافذة - غيرَ عامِدٍ - وأصبحتُ  
نهبَ الحوادثِ . ولم يبقَ لي أملٌ في النجاةِ لولا تلكَ العمدةُ الحديديةُ ،  
المثبتةُ بها النافذةُ مِنَ الخارجِ . ورأيتُ الماءَ ينفذُ إلى عُلْبتي من خلالِ  
بعضِ الشقوقِ ، فبذلتُ قصارى جهدي في سدِّ كلِّ ثغرةٍ وجدتها . ولشدة  
ما أسِفْتُ على أنْ لم يكنْ في وُسي أنْ أرفعَ سطحَ عُلْبتي لأجلسَ فوقها ،  
بدلاً من بقائي في داخلها كأنني محبوسٌ في قاعِ سفينةٍ .

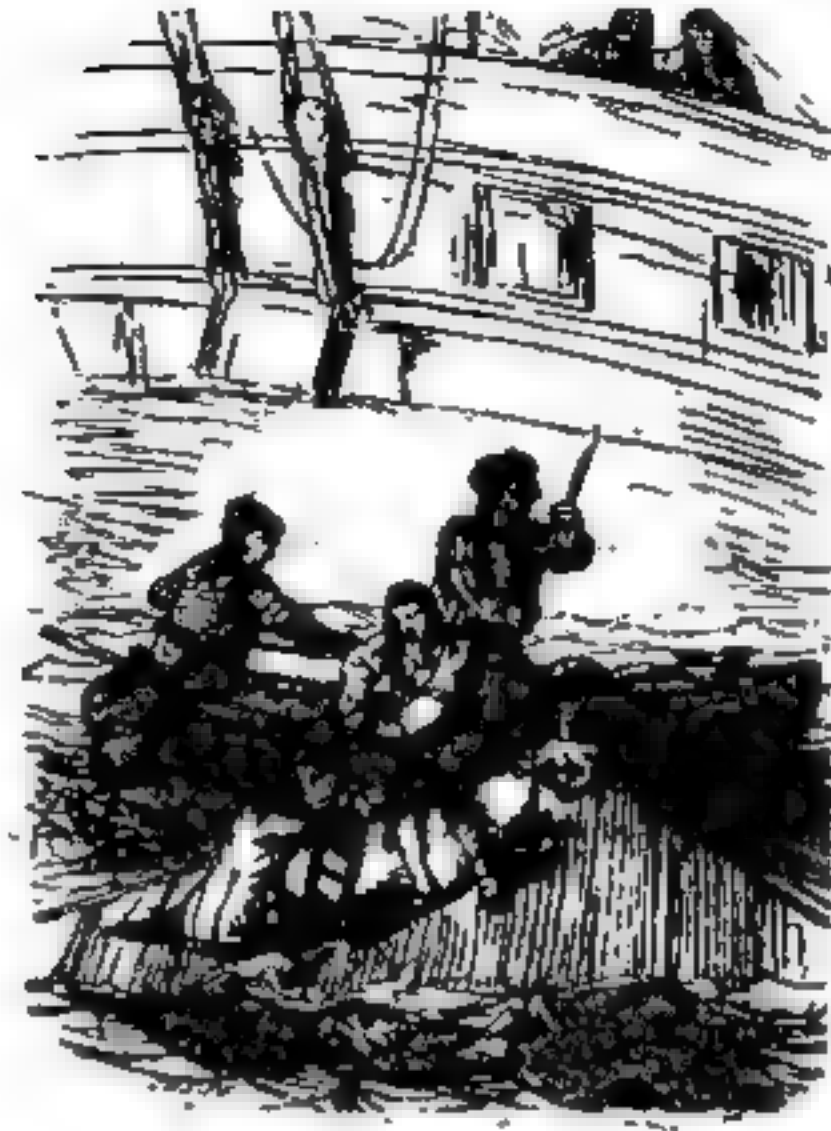
وإني لغارقٌ في هذه التأملاتِ والمخاوفِ ، إذ خُيلَ إليَّ أنني أسمعُ  
حركةً بالقربِ من عُلْبتي ، ثم خُيلَ إليَّ أن العلبَةَ تُجرُّ إلى ناحيةٍ بعينها .  
وكنتُ - بين وقتٍ وآخر - أشعرُ بأنَّ الأمواجَ ترتفعُ أحياناً إلى أعلى  
نافذتي فأصبحُ في ظلامٍ حالكٍ . فقررْتُ في نفسي أن أناساً قريبينَ مني يحاولون  
إيقادِي ممَّا أنا فيه ؛ فوقفتُ على كرسِيٍّ فوق كرسِيٍّ . ورفعتُ رأسي إلى ثغرةٍ  
صغيرةٍ في سطحِ عُلْبتي ، وصيحتُ طالباً النجدةَ بكلِّ لغةٍ أعرفُها .

## ١٠ - ساعةُ الخلاصِ

ثم شددتُ مِنديلي إلى عصايَ ، وأخرجتهُ من الثغرةِ ، وحرَّكتهُ في  
الهواءِ عدةَ مراتٍ ؛ لعلَّ السفينةَ - التي أتخيلُها قريبةً مِنِّي - تراه فتعرفُ  
أنَّ في تلكَ العلبَةِ إنساناً تَمَسَّ يَبْنِي القوْثَ والنجاةَ . وركدتُ أَيْتُسُ من  
الخلاصِ وأكفْتُ عن النداءِ ، ولكنني أَحْسَسْتُ أنَّ عُلْبتي تتقدَّمُ إلى  
الأمامِ ؛ فهاودني الأملُ . وبعدَ ساعةٍ تقريباً شعرتُ أنها قد صُدِمتُ بشيءٍ  
صُلْبٍ ، فخشيتُ أن تكونَ قد صُدِمتُ بصخرةٍ في طريقها ؛ فاستَوَيْتُ على  
الرُّعْبِ والإزعاجِ . ثم سمعتُ حركةً واضحةً - فوقَ سطحِ عُلْبتي -  
وأَحْسَسْتُ أنَّ حَبْلًا قويًّا يَجْرُّها ، وهي ترتفعُ شيئاً فشيئاً من مكانها نحوَ ثلاثةِ  
أقدامٍ . فرفعتُ عصايَ وَمِنديلي مُلوَّحًا بهما في الفضاءِ ، وصرختُ - بأعلى  
صوتي - طالباً القوْثَ والنجدةَ ، حتى بُعِثَ صوتي ؛ فسمعتُ هتافاً يتردَّدُ ،  
فامتلاً قلبي سروراً ليس في قدرتي أن أسفهَ للقارئِ ، وليس في قدرةِ إنسانٍ  
أنْ يتمثَّلَ له هذا السرورُ إلا إذا تخيلَ نفسه مكانَ

وقد سمعتُ - بعد ذلك - حَقْقَ أقدامٍ على السطحِ ، وطَرَقَ أَذُنِي

صوت رجل يناديني بِلُغَتِي مِنَ الثُّغْرَةِ قَائِلًا : « هل هنا أحد ؟ »



فأجبتُه من فَوْرِي : « نعم  
— بكلِّ أَيْفٍ — يا سيدي ،  
هنا إنسانٌ نَحْسٌ مَسْكِينٌ ، أَسْلَمَهُ  
جَدُّهُ الْعَائِرُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ  
الْمَحْزَنَةِ ، وَهُوَ يَضْرَعُ إِلَيْكَ أَنْ  
تُنْقِذَهُ مِنْ هَذَا السُّجْنِ ! »  
فأجابني الصوتُ :

« لا عليك يا أخى ، فاطمئنْ ،

قَدْ شَدَدْنَا صُدُوقَكَ إِلَيْنَا ، وَاسْتَدَعَيْنَا النُّجَارَ لِنُفْتِحَهُ ، وَإِخْرَاجَكَ مِنْهُ . »  
فَقُلْتُ : « وَقَدْ نَسِيتُ أَنَّنِي لَسْتُ فِي بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ هَذِهِ

الْحِجْرَةَ بِأَصْبَحٍ وَاحِدَةٍ . »

« لَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا الْعَنَاءِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَعْرِقُ وَقْتًا طَوِيلًا . »

فَلَمَّا تَقَدَّمَ أَحَدُكُمْ ، وَلِيَصْغَعَ إِصْبَعَهُ فِي الْجَبَلِ ، فَيَرْفَعَ الْعَلْبَةَ مِنَ الْبَحْرِ

إِلَى السَّفِينَةِ بِإِعْنَاهُ . »

وَمَا سَمِعُوا ذَلِكَ ، حَتَّى ضَحِكُوا مِمَّا سَمِعُوا ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي مَقْتُولٌ  
لَا أَقَّةُ مَا أَقُولُ !

وَمَا كُنْتُ أَحْسَبُ — حَيْثُ — أَنَّنِي بَيْنَ رِجَالٍ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِي فِي مِثْلِ  
مَسْأَلَةِ جِنْسِي وَقَصْرِ قَامَتِي . ثُمَّ جَاءَ النُّجَارُ — بَعْدَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ — فَفُتِحَ  
ثُغْرَةٌ فِي أَعْلَى الْعَلْبَةِ ، عَرْضُهَا ثَلَاثَةُ أَقْدَامٍ ، وَأُذِلَّتْ إِلَى بُسْمٍ صَغِيرٍ ،  
فَصَعِدْتُ فِيهِ . وَمَا وَصَلْتُ إِلَى السَّفِينَةِ حَتَّى كَانَ الضَّعْفُ وَالْإِعْيَاءُ قَدْ  
بَلَغَا بِي كُلَّ مَبْلَغٍ . وَقَدْ دَهَشَ الْمَلَّاحُونَ جَمِيعًا مِنْ رُؤْيِي ، وَسَأَلُونِي عِدَّةَ  
أَسْئَلَةٍ : فَلَمْ أَقْو — لِضَعْفِي — عَلَى إِجَابَتِهِمْ عَنْ سَوَالٍ وَاحِدٍ .

## ١١ — نَوْمٌ مُضْطَرِبٌ

وَلَشَدَّ مَا أَذْهَنَنِي قَصْرُ قَامَاتِهِمْ ، وَكَانَتْ عَيْنَايَ قَدْ تَوَدَّعَا رُؤْيَةَ الْعَمَالِقَةِ ،  
وَمَا يَحِيطُ بِهِمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ الضَّخْمَةِ الْعَظِيمَةِ . وَقَدْ أَدْرَكَ الرُّبَّانُ — بِذِكَاثِهِ —  
مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ الضَّعْفِ ، فَأَدْخَلَنِي حُجْرَتَهُ ، وَحَمَلَنِي إِلَى سَرِيرِهِ لِأَسْتَرِيحَ مِمَّا  
أَنَا فِيهِ ، فَأَخْبَرْتُهُ — قَبْلَ أَنْ أُغْمِضَ عَيْنَيَّ — أَنَّ فِي عُلْبَتِي اثْنَانِ ثَمِينًا وَثِيَابًا  
فَآخِرَةً مِنَ الْحَرِيرِ وَالْقَطَنِ ، وَرَجَوْتُ مِنْهُ أَنْ يَأْمَرَ أَحَدَ رِجَالِهِ بِنَقْلِ ثَمَانِي

عُلِبَتِي مِنَ الْأَثَاثِ . فَعَجِبَ الرَّبَّانُ كَيْفَ أُسْمِي تِلْكَ الْحُجْرَةَ الْوَاسِعَةَ  
عُلْبَةً صَغِيرَةً ، وَحَسِبَنِي أَهْذِي وَلَا أَعْيِي مَا أَقُولُ .

على أنه جاراني في الكلام ، ووعدني بتحقيق ما أردت ، لِيُطْمَئِنِّي  
وَيُرْضِيَنِي ، ثُمَّ أَرْسَلَ رِجَالَهُ لِإِحْضَارِ الْعُلْبَةِ .

أما أنا فاستسلمتُ لِنَوْمٍ مُضْطَرِبٍ بَضْعَ سَاعَاتٍ ، وَظَلَمْتُ أَحْلُمُ بِلَادِ  
الْعَمَالِقَةِ الَّتِي تَرَكْتُهَا ، وَتَمَثَّلُ لِيَ الْخَطَرُ الَّذِي كُنْتُ مُسْتَهْدِفًا لَهُ . فَلَمَّا أَفَقْتُ  
مِنْ نَوْمِي وَجَدْتُني مُسْتَرِيحًا نَشِيطًا ، وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّامِنَةُ مَسَاءً ؛ فَأَعَدُّ لِيَ  
الرَّبَّانُ طَعَامَ الْعِشَاءِ بِكَرَمٍ وَسَخَاءٍ ، وَلَكِنَّهُ عَجِبَ حِينَ رَأَى عَيْنِي زَائِفَتَيْنِ !

## ١٢ - كَيْفَ اهْتَدَوْا إِلَى « جِلْفَر »

وَلَمَّا خَلَا بِي الرَّبَّانُ طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَقْصَّ عَلَيْهِ قِصَّتِي ، وَكَيْفَ كُنْتُ فِي هَذَا  
الْمَكَانِ ؟ وَمِنْ وَضَعِي فِي الصُّنْدُوقِ ؟ وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ رَأَاهُ مِنْ بَعِيدٍ فِي  
وَقْتِ الظَّهْرِ - حِينَ كَانَ يَنْظُرُ بِمِنْظَارِهِ - فَحَسِبَهُ زَوْرَقًا صَغِيرًا ، فَحَوَّلَ  
سَفِينَتَهُ إِلَيْهِ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْهُ ، وَأَرْسَلَ زَوْرَقًا لِيَتَعَرَّفَ حَقِيقَتَهُ ، فَمَادَ إِلَيْهِ رِجَالَهُ  
مَذْعُورِينَ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ رَأَوْا يَتِيمًا عَائِمًا ؛ فَضَحِكَ مِنْ بِلَاهَتِهِمْ ، وَاسْتَقَلَّ

الزَّوْرُقَ بِنَفْسِهِ ، وَدَارَ حَوْلَ الصُّنْدُوقِ عِدَّةَ مَرَاتٍ ، فَرَأَى نَافِذَتَهُ ، فَلَمْ يَسْعَهُ  
إِلَّا أَنْ يَأْمَرَ مَلَاحِي سَفِينَتِهِ أَنْ يَجْدِفُوا حَتَّى اقْتَرَبُوا مِنْهُ ، وَرَبَطَ حَبْلًا فِي  
أَحَدِ أَشْيَاخِ النَّافِذَةِ ، وَلَفَّهُ حَوْلَ الْعُلْبَةِ . وَقَدْ رَأَى عَصَايَ - وَفِي طَرَفِهَا  
الْمِنْدِيلُ - فَأَيَّقَنَ أَنَّ أَحَدَ التُّعَسَاءِ الْمَسَاكِينِ قَدْ أَلْقَى فِي دَاخِلِ هَذَا  
الصُّنْدُوقِ سَجِينًا .

فَسَأَلْتُهُ : هَلْ رَأَى طَائِرًا كَبِيرًا فِي الْفَضَاءِ حِينَ رَأَانِي ؟ فَقَالَ لِي مُتَعَجِّبًا :  
« لَقَدْ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إِلَى أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ وَأَنْتَ نَائِمٌ ؛ فَذَكَرَ لِي  
أَحَدُهُمْ أَنَّهُ رَأَى ثَلَاثَةَ نُسُورٍ تَطِيرُ فِي الْفَضَاءِ - صَوْبَ الشَّمَالِ - عَلَى  
ارْتِفَاعٍ عَظِيمٍ . »

وَلَمْ يَعْرِفِ الرَّبَّانُ مَاذَا عَنَيْتُ بِهَذَا السُّؤَالِ .

## ١٣ - شُكْرُكَ الرَّبَّانِ

ثُمَّ سَأَلْتُ الرَّبَّانَ :

« كَمْ يَتَنَاوَيْنِ الْيَابِسَةَ ؟ »

قَالَ لِي : « إِنَّ الْمَسَافَةَ الَّتِي يَتَنَاوَيْنِ الْأَرْضِ تَبْلُغُ نَحْوَ مِائَةِ مِيلٍ . »  
قُلْتُ لَهُ :



« لا أظنُّ إلا أن المسافة نصفُ ذلك القدرِ ؛ فقد غادرتُ البلادَ التي كنتُ فيها منذُ ساعتينِ قبلَ أن أهوىَ إلى البحرِ . »  
فحسبَ الرُّبانُ أنني قد جُئْتُ ، وظنَّ أنني أهْدَى ، وأن رأسي مضطربٌ  
مما لقيته من الهولِ ، وأشار على أن أنامَ في حُجْرَتِهِ . فأثبتُّ له أنني في غير  
حاجةٍ إلى النومِ ، وأني قد استعدتُ قِوَايَ بعد أن نمتُ وأكلتُ ، وأني  
واعٍ مثبتُّ مما أقولُ .

فنظر إلى مُعَبِّسًا ، وقال لي ، في لهجةِ الحازمِ الجادِّ في قوله : « أرجو أن  
تُكاشِفَنِي بحقيقةِ أمرِكَ ، بلا مُوَارَبَةٍ ، ما دُمْتُ واعيًا مثبتًا مما تقولُ . كما  
أرجو أن تُفِصِلَ إليَّ بالجريمةِ التي ارتكبتها ، فاستَحَقَّتْ عليها العقابُ . »  
ولعله ظنَّ أن أحدَ الملوكِ قد أمرَ بوضعي في هذا الصُّندوقِ ، وإلقاءي  
في البحرِ عقابًا لي على جُرمِ اقْتِرَافَتِهِ ، كما يُفْعَلُ بالمجرمينَ في بعضِ  
البلدانِ ، إذ يُدْرَكُون تحتَ رحمةِ الأمواجِ الهائجةِ في سفينةٍ من غيرِ شِراعٍ  
ولا زادٍ . وأظهر لي أَلَمَهُ وَاِمْتِصَاضَهُ من أنْ يُؤْوِيَ في سفينتهِ أحدَ الأشرارِ ،  
ولكنه أقسمَ لي إنه لن يَمَسَّنِي بسوءٍ إذا صدَّقْتُهُ حَقِيقَةَ أَمْرِي ، وإنه  
سَيُرَتِّلِي سَالمًا في أولِ بَلَدٍ يَسُرُّ به في طريقِهِ .

وَحَتَمَ كَلَامَهُ بقوله : « لقد حامتِ الشُّبُهَةُ حولَكَ ، وزادها عندي  
ما سمعته منك من الهديانِ الجُنُونِ الذي كنتَ تَحْبِطُ فيه ، قُتِصَّتْ  
الحُجْرَةُ الكبيرةُ عُلبَةً صغيرةً ، وقد رأيتُ عينيك زائغَتَيْنِ لا يكادُ يقرُّ  
لهما قرارٌ ، ورأيتُكَ تنظرُ فيما حولَكَ نظرةَ القَلِقِ الحائرِ المُضْطَرِّبِ . »

#### ١٤ - اقْتِنَاعُ الرُّبَّانِ

فَرَجَوْتُ منه أن يترى قَلِيلًا في حُكْمِهِ حتى يسمعَ قصتي كُلِّهَا . ثم  
رَوَيْتُ له - في أمانَةٍ ودَقَّةٍ - كلَّ ما حدث لي منذ تركتُ بلادِي في رحلتي  
الأخيرةَ ، إلى أن تلاقينا في تلك السفينةِ .

ولما كانتِ الحَقِيقَةُ تُشَقُّ طريقَهَا إلى القَولِ المُدْرِكِ الصَّحِيقَةِ ؛  
ارتاح الرجلُ الذكيُّ الكَيِّسُ ( الدَّقِيقُ الإحساسِ ) إلى سلامةِ سَرِيرَتِي ،  
وصفاءِ قَسي وإخلاصِي ، وزادَهُ اقْتِنَاعًا - بما قلتُ - ما رآه في صُندوقِ  
من الطُّرَفِ والتُّخَفِ التي أثبتُّ بها من تلك البلادِ .

وكان بين هذه التُّخَفِ المُشْطِ الذي صنَعَهُ من شَعَرَاتِ لِحْيَةِ المَلِكِ .  
وقد أريْتُ الرُّبَّانَ مُشْطًا آخرَ كنتُ قد صنَعْتُ مَقْبِضَهُ من ظُفْرِ إِبْهَامِ



الملك ، كما أُرِيَتْهُ إِضْمَامَةً مِنَ الْإِبَرِ وَالْدَّابَّائِسِ طُولَ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا قَدَمٌ وَنِصْفُ قَدَمٍ ، وَخَاتَمًا مِنَ النِّهَبِ أَهْدَتْهُ إِلَى الْمَلِكَةِ ذَاتَ يَوْمٍ — بَعْدَ أَنْ نَزَعَتْهُ مِنْ بِنَصْرِهَا — وَوَضَعَتْهُ قِلَادَةً فِي عُنُقِي .

وَرَجَوْتُ مِنَ الرَّبَّانِ أَنْ يَقْبَلَ مِنِّي هَذَا الْخَاتَمَ هَدِيَّةً إِلَيْهِ — عِرْفَانًا بِمُرُورِهِ وَقَضَائِهِ عَلَيَّ — فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ عَلَيَّ صَنِيعِهِ أَجْرًا . ثُمَّ أَرَيْتُهُ السَّرْوَالَ الَّذِي أَلْبَسَهُ — وَهُوَ مَصْنُوعٌ مِنْ جِلْدِ فَاَرَةٍ — فَوَثَّقَ الرَّبَّانُ بِمَا قُلْتُ ،



وَارْتاحَ لِسَمَاعِ قِصَّتِي ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيَّ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتُهُ لَهُ . وَقَدْ أَلَحَّ عَلَيَّ فِي الرَّجَاءِ أَنْ أُثَبِّتَ هَذِهِ الْوَقَائِعَ كُلَّهَا فِي كِتَابٍ وَأُذَيِّعَهُ بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : « إِنْ الْخَزَائِنَ وَالْمَكْتَبَاتِ غَاصَّةٌ بِأَسْفَارِ السَّاحِلِينَ وَرِخَالِهِمْ ، وَإِنِّي

أَخْشَى أَنْ يَرْتَابَ بَعْضُ النَّاسِ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَكْتُبُهُ ، أَوْ يَحْسَبَهُ رِوَايَةً خَيَالِيَّةً أَوْ تَلْفِيقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ . عَلَى أَنِّي لَا أَرَى فِي هَذَا الْكِتَابِ — إِذَا أَدْعَتْهُ — إِلَّا وَصْفًا صَادِقًا لِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَقَالِيدٍ وَأَخْلَاقٍ ، وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْتَحِقُّ عَنَاءَ كِتَابَتِهِ . »  
ثُمَّ شَكَرْتُ لِلرَّبَّانِ حُسْنَ رَأْيِهِ فِيَّ .

### ١٥ — مُمْلَحَاتُ الرَّبَّانِ

وَقَدْ عَجِبَ الرَّبَّانُ أَشَدَّ الْعَجَبِ حِينَ رَأَى لَا أَتَكَلَّمُ مَعَهُ إِلَّا بِأَعْلَى صَوْتِي ، وَسَأَلَنِي عَنِ السَّرِّ فِي ذَلِكَ — وَقَدْ عَلَّلَهُ بِأَنْ « مَلِكَ الْعِمَالَةِ وَمَلِكَتَهُمْ أَصَمَّانٌ — قَلْتُ لَهُ :

« لَقَدْ أَلِفْتُ الْكَلَامَ بِصَوْتٍ مَرْتَعٍ مِنْذُ عَامَيْنِ ، وَقَدْ أَدَهَشَنِي مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَصَوَاتِكُمْ الْخَافَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَلِفْتُ أَذْنَائِي أَنْ تَسْمَعَ أَصَوَاتَنَا مَرْتَفَعَةً كَالرَّغْدِ . وَكُنْتُ إِذَا تَكَلَّمْتُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ — مَعَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا — حَيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَخَاطِبُ رَجُلًا يُطِلُّ مِنْ فَوْقِ مِثْدَنَةٍ . وَكَثِيرًا مَا وَضَعُونِي فَوْقَ مَائِدَةٍ عَالِيَةٍ ، أَوْ رَفَعُونِي بِأَيْدِيهِمْ ؛ حَتَّى يَتَيَسَّنَّوْا مَا أَقُولُ . وَلَشَدَّ مَا عَجِبْتُ



حينَ وقتُ ينكم فرأيتُ أمامي عِدَّةَ رجالٍ غايةً في الصَّغرِ، بعد أن تَعَوَّدتُ عيناى أن تَرى صِخَامَ الأشياءِ التي كانت تُشعِرُنِي بِحَقَارَةِ نَفْسِي دَائِمًا .  
ولقد كاشَفَنِي الرُّبَّانُ بأنه قد لاحظَ - حينَ كنتُ أَتَعَشَّى على المائدةِ -  
أننى كنتُ زائِغَ البَصَرِ، أَنظُرُ إلى كُلِّ شَيْءٍ في دَهْشَةٍ وَحَيْرَةٍ، وَتَلُوحُ عَلَى  
أَسَارِيرِ وَجْهِ رَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ فِي الضَّحِكِ، وَلَكِنِّي كُنتُ أَخْبِسُ عَوَاطِفِي  
حَبَسًا حَتَّى لَا أَقْبِهَةَ ضَاحِكًا . وقد كاشَفَنِي الرُّبَّانُ بأنه كان يَعْزُو ذَلِكَ إِلَى  
اِخْتِلَالٍ فِي السَّخِّ .

فشرحتُ له عُذْرِي فِي ذَلِكَ، وَكَيْفَ أَدهَشَنِي مَا رَأَيْتُهُ مِنْ صِغَرِ المائدةِ،  
وَضَالَهَ مَا عَلَيْهَا مِنَ الصُّحُوفِ الَّتِي لَا يَزِيدُ حَجْمُهَا عَلَى حَجْمِ قِطْعَةٍ تَقْدِرُ  
فَضِيَّةً مِنَ النُّقُودِ الَّتِي كُنتُ أَرَاهَا فِي بِلَادِ العِمَالِقَةِ ! وقد كُنتُ أَرى  
الخُرُوفَ كُلَّهُ لَا يَزِيدُ عَلَى لُقْمَةٍ وَاحِدَةٍ يَرْدَرِدُهَا وَاحِدٌ مِنْ أَوْلِيكَ العِمَالِقَةِ،  
وَأَرى القَدَحَ لَا يَزِيدُ عَلَى قَشْرَةٍ جَوْزٍ صَغِيرَةٍ . وَظَلَلْتُ أَصِفُ لَهُ كُلَّ  
مَا عَلَى المائدةِ، وَأَقْبِسُهُ إِلَى أمثَالِهِ فِي تِلْكَ البِلَادِ . ثم قلتُ لَهُ :

« لقد كانتِ المَلِكَةُ تَأْمُرُ بِإِعْطَائِي كُلَّ مَا يُنَاسِبُ صِغَرَ قَامَتِي وَضَالَهَ  
جَنَمِي ، إِلَّا أَنَّ أَفْكَارِي كَانَتْ كُلُّهَا مَخْصُورَةً فِيمَا كَانَ يَكْتَنِفُنِي مِنْ

الضَّخَامَةِ . وَكُنتُ - وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ هَذِهِ السَّفِينَةِ - أَنظُرُ إِلَى مَا حَوْلِي  
مَتَعَجِّبًا مِنْ ضَالَتِهِ ، غَافِلًا عَنْ أَنَّكُمْ فِي مِثْلِ حَجَمِي ! »

فَضَحِكَ الرُّبَّانُ ، وَذَكَرَنِي بِالْمَثَلِ الْقَدِيمِ الَّذِي يَقُولُ :

« إِنْ عُيُونَ بَعْضِ النَّاسِ أَوْسَعُ مِنْ بُطُونِهِمْ ! »

لأنَّهُ رَأَى أَنَّنِي كُنتُ - عَلَى مَا أَزْعَمُهُ مِنْ صِغَرِ المائدةِ ، وَعَلَى جُوعِي  
الشَّدِيدِ - لَا أَتَهَافَتُ عَلَى الطَّعَامِ ، وَلَا آكُلُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرًا يَسِيرًا بَعْدَ أَنْ  
صُمْتُ يَوْمًا كَامِلًا .

ثم ختم دُعَايَتَهُ بِقَوْلِهِ :

« لقد كُنتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَرى ذَلِكَ الصُّنْدُوقَ الَّذِي كُنتَ فِي دَاخِلِهِ وَهُوَ  
فِي مَنَقَارِ النَّسْرِ ، ثُمَّ أَرَاهُ وَهُوَ يَهْوِي - بَعْدَ ذَلِكَ - مِنْ ارْتِفَاعِهِ الشَّاهِقِ  
إِلَى الْبَحْرِ . وَإِنِّي لَأَدْفَعُ مِائَةَ جُنَيْهِ مَعْدُودَةٍ ثَمَنًا لِهَذَا الْمَنْظَرِ الرَّائِعِ  
الْمُدْهِشِ ، الَّذِي يَجْدُو بِكَ أَنْ تُسَجِّلَهُ فِي كِتَابٍ ، لِيَقْرَأَهُ النَّاسُ فِي  
الصُّوَرِ الْقَادِمَةِ ! »



وما وصلتُ إلى المرفأ ، حتى أردتُ أن أتُركَ متاعِي عندَ الرُّبَّانِ  
ليكونَ رهينةً لديهِ إلى أن أدفعَ له أجرَ سفرِي ؛ ولكنه أبى أن يأخذَ  
مني أيَّ أجرٍ على ذلك . فودَّعته ، ودعوتُهُ مُترَفِّحاً أن يتفضلَ بزيارتي في  
« رديف » . واستأجرتُ جواداً ودليلاً بعد أن اقترضتُ من الرُّبَّانِ قليلاً



من النقود لأدفعها  
أجرًا للدليل .  
وكنتُ - في أثناء  
سَيرِي - أدهشُ  
لصِغَرِ المنازلِ ،  
وضالَّةِ الأشجارِ ،

وحقارةِ الدوابِّ ، وقماعةِ الرجالِ ؛ فإخالني سائرًا في « ليليوت » - بلادِ  
الأقزام - وأتخرجُ من أن أطلأ بقدمي أحداً منهم في أثناء الطريق . وكنتُ  
أصيحُ بهم أن يتنَحَّوْا ، وكذتُ أشتبِكُ في مَعْرَكَتَيْنِ - بسببِ حماقتي -  
وقد عرَّضتُ نفسي للهلاكِ في كلِّ واحدةٍ منهما .

خاتمة الرحلة

## ١ - العودة إلى الوطن

وكان من حُسنِ حظِّي أن ذلكَ الرُّبَّانَ عائدٌ إلى « إنجلترا » وهو قادمٌ  
من « تُنكين » ..

وما وصلنا إلى الدرجةِ الأربعينِ من خطوطِ الطولِ ، حتى هبَّتْ  
علينا ريحٌ شديدةٌ - ولم يكنْ قد مرَّ على وُجودي في السفينةِ - إلا يومانِ ،  
فاندفعنا إلى الشمالِ زَمَنًا طويلًا ، ثم حاذينا الشاطئَ ، حتى بلغنا رأسَ  
الرجاء الصالح .

وكانتِ الرحلةُ سعيدةً مَوْقِعةً ، رغمَ ما كابَدناه فيها من جَهْدٍ وَعَناءٍ في  
التغلبِ على العواصفِ الهوج . وقد مرَّ الرُّبَّانُ ببلَدَيْنِ - في أثناء سفرِهِ -  
فتزوَّدَ منهما بما شاء من الطعامِ والماءِ . أما أنا فلم أترَحِ السفينةَ حتى وصلتُ  
إلى وطني في اليومِ الثالثِ من شهرِ بُنيَّة عام ١٧٠٦ م ، أي بعدَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ  
تقريباً من خلاصِي .

لِيَحْيِيَنِي؛ فرأيتهم جميعاً أقراماً ضئلاً، وخيل إلي أنني بينهم عِملاقٌ عظيمٌ  
بائسٌ الطول. ولقد طالما قلتُ لزوجتي: «إنَّكَ غايَةٌ في الضَّالَّةِ والنَّحَافَةِ.»  
لأنني رأيتها وابنتيها أمامي كأنهم حشراتٌ صغيرةٌ...!

وهكذا أصبحتُ غريبَ الأطوار؛ فازتابوا في صحَّةِ عَقْلي، وسلامةِ  
أعصابي، وحسبوني - كما حسِبني الرُّبَّانُ من قَبْلُ حينَ رآني أولَ وهلةٍ -  
قد جُنِنْتُ بعدَ ما لَقِيتُهُ مِنَ الأَهْوَالِ! ولم يكنْ لذلكُ كلُّهُ من سببٍ إلا  
أنني قد تمودتُ رؤيةَ العماقةِ وما يكتنفهم من ضيخامِ الأشياءِ؛ فصَفُرُ  
في عيني كلُّ ما رأيته في بلادِي، من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ. وفي هذا  
دليلٌ على ما تُحدِثُهُ العادةُ من أثرٍ في نفسِ صاحبِها.

ولم يمضِ على زمنٍ قليلٍ، حتى استقرتِ الأمورُ في نصايبيها؛ فألَفْتُ  
أن أرى الأشياءَ على حقيقتها، وأقبلتُ على أهلي وأصدقائي؛ ففرحوا بذلكِ  
أشدَّ الفرحِ. ورأتُ زوجي أن تكونَ هذه خاتمةَ الرِّحَلاتِ؛ فأبرمتُ  
أمرها ألا تدعني أعرضُ نفسي - بعد ذلكَ اليومِ - لأخطارِ الأسفارِ،  
ورُكوبِ البحارِ،

الرحلة الثالثة: جلقر في الجزيرة الطيارة

## ٢ - في نيتِ «جلقر»

وما وصلتُ إلى منزلي، وقرعتُ بابَه، حتى فتحَ لي أحدُ الخدمِ،  
فانحنيتُ لأدخُلَ - حذراً من أن يُصدمَ رأسي بأعلى البابِ - وقد بدا لي  
البابُ صغيراً كأنه نافذةٌ صغيرةٌ....!

وما رأيتُ زوجتي، حتى أسرعْتُ إلى لتعانقني وتقبلني - وهي فرحانةٌ  
بعودتي سالماً - فانحنيتُ انحناءةً طويلةً أمامها، حتى أصبحتُ دونَ  
رُكبتَيها، وقد خيلَ إلي أنها



- تقصَّرها - لن تصلَ إليَّ إلا إذا  
انحنيتُ أمامها إلى هذا الحدِّ. ثم  
أسرعَ إليَّ ولدأي، وركعاً على  
رُكبتَيهما حمدًا لله على سلامتي، فلم  
أستطعُ أن أتبيَّهما إلا بعد أن وقفا  
أمامي، لأنني كنتُ قد اعتدتُ - منذُ  
زمنٍ طويلٍ - أن أقفَ مرفوعَ

الرأسِ مصوباً بعينيَّ إلى أعلى. ثم نظرتُ إلى مَنْ وَفَدَ عليَّ مِنَ الأصدقاءِ